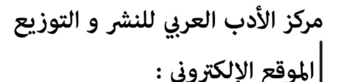
سلطان موسى الموسى

كبيرةُ الورد



قصة قصيرة

كبيرةُ الورد



مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع



الموقع الإلكتروني :

Www.Adab-Book.Com

مركز الأدب العربي

@Services_Book

@Services_Book

مركز الأدب العربي

adabarabic7

services_book@outlook.sa

مسؤول النشر :
للتواصل

0597777444

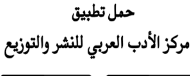


المملكة العربية السعودية- الدمام

لطلب إصدارات مركز الأدب العربي

@Adab_Book

00966594447441



حمل تطبيق

مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع





دولة الإمارات العربية المتحدة مكتبة الأدب العربي 00971569767989

مملكة البحرين مكتبة قصر فخر الدين 0097366753587

جمهورية مصر العربية مركز الأدب العربي 00201120102172

كبيرةُ الورد

(قصة قصيرة)

سلطان موسى الموسى

almousa_su

sultan.almousa

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

الإهداء

إلى أصدقاء العزلة

عبد الله الرسي – مقرن الموسى – سطام المالك –

خالد الجهيمان – فهد السحيم

نايف مُلاعب – صالح اللحيدان – عبد الله العبدلي –

سلطان السهلي – راكان الشايع –

بندر الشعلان – محمد البراهيم – فيصل الرشيد –

لؤي الشريف – أحمد العصيمي

أحمد التويم – عبد المجيد اليمني – سعد الناجم –

عبد الله الزهراني – ياسر الفوزان – سعد وفهد السماري

كنتم أقربَ عن بُعد

توطئة

بُنيت هذه القصة على واقعٍ مريرٍ من تاريخِ الروم،
وكان زمانها مطلع القرن الأول بعد الميلاد

دع قلبك يسمع قلبي



١

رأيتهم بأم عيني، ومن اليقينِ ما هو باعثٌ للشك، لم أعد أعلم عن صدق عيني ولا أمّها، بعثروني وأنا التي عشتُ لألملم شتات الناس، فكيف بي وأنا ما بين شتاتٍ وبعثرة.

دخلوا عليّ بينما أنا في أحضان (جيرمانكوس) أغطُّ في نومي وأذوبُ على صدره وأزاحمُ أضلاعه على قلبه، لم أكن أعلمُ أنه سباتي الأخير مع زوجي وحبيبي، وإلا لأوقفتُ الزمن على حالنا فوق السرير فتكونُ قبلاتي الأخيرةُ خالدة.

كانوا ثلاثة جنودٍ من شعبي، لا أرى لوجوههم ملامحٌ في الظلمات وكأنهم أحلام، لبسوا كل ما يرتديه المقدم على حرب، ولا جيش أمامهم سوى زوجين أعزلين، أحدهما كان قائدهم وبطل حروبهم وجالب نصرهم في جرمانيا وأنطاكيا، وتشهدُ الآلهةُ كلها على حبه لهم وتورعه عن ظلمهم وجنوحه إلى إكرامهم وإعلاء شأنهم بين الشعوب، أما الآخر فقد كنتُ أنا.. أنا التي ما

أبقيتُ على شيءٍ لي قبل يقني بأن لا أحد من شعبي أحوج إليه مني، أنا التي ما أن علمتُ عن رغبةٍ إلا ولبّيت لها النداء، والأيامُ تحكي كم منعت عن نفسي خيرًا ووهبته الناس، وإني لأودُّ الموت ألف مرة قبل أن يأتيني ما قدّمتُ من عطاءٍ على هيئةِ خيانة.

شهروا سيوفهم والقمر من ورائهم يضيء نصالها عبر نافذتي إلى السماء، كانت قبلة السيوف إلى وريد زوجي، وضعوها على عنقه ففزعتُ من مرقدي وصوتي يملأ الدنيا، وفزع (جيرمانكوس) معي وما أن همّ بالنهوض حتى وجدهم وقد أحكموا حصاره، وطوقوا عنقه أيما تطويق.

حاولوا إسكاتي. وقد كان الخوف يتملكني.

هانت الحياة في عيني وضاقت بي على وسعها، رميتُ وشاحي فانكشف لهم جسدي عارياً وتدلت أثدائي، انهلتُ عليهم كالذئبة لأخلّص زوجي من وطأة الموت تحت سيوفهم، وقد كان زوجي ينهرني فور قيامه فزِعًا أمام ما يراه.

صفعني أشدهم بنية حتى كدتُ أطير لغلظته، وعدتُ مرةً

أخرى لأزيد في عويلي ونحيبي بلا اكتراثٍ مني لأوامرهم بالسكوت.

نظر إلي (جيرمانكوس) أثناء حصارهم له، وطلب مني هامسًا أن ألزم الصمت خوفًا علي، كنتُ رابضةً في مكاني على إثر صفعتهم ودموعي تغسل وجهي.

شرع اثنان منهم في إيثاق يدي (جيرمانكوس) بالأغلال، بينما سيف ثالثهم على نحره لئلا يقوى على التحرك برهة.

كان ينظر إلي ليطمئن على حالي، وقلبي يأكلني ويقول لي:

- من الأحق بالاطمئنان على الآخر يا حبيبي؟

رأيتُ زوجي شاحب الوجه بينهم، وهو من لازم السكون وجهه منذ أن حاز على روحي، ليست تانك العينان المهزوزتان عينيك الوسيعتين الجميلتين يا قمري، ولا ذلك الصوت الراجف صوتك الباعث على الأمان.

لم أكن أعرف شيئًا مما يدور حولي، استجمعتُ قواي بعد أن

خارت على الأرض وانتهضت، حاولت الخروج طلبًا للنجدة ولكنهم قد أغلقوا الأبواب، وما أن أحكموا من الوثاق على زوجي حتى اندفعتُ نحوهم لأخلصه مرةً أخرى، اقتربتُ منهم لأرميهم بفخارية اتخذتها زينةً لي فارتَطمَت على مقربةٍ منهم ولم يطَلْهم شيءٌ من جذاذها.

اقتربتُ أكثر وكانت تلك آخر ذكرى لي هناك، اختلط ظلام الحجرة بالظلام الذي بدأ يتسلل إلى جسدي بغتة بعد أن ضربني أحدهم على رأسي بدرعه، فانتهى عهدي بهم وانطفأ كل شيء إلا من صوتٍ يخترق الصمت ويصرخ قائلاً:

- أغريبينا..!!

وكان اسمي آخر ما سمعته بصوت (جيرمانكوس) وذلك قبل أن يُغشى عليّ فأصحو بعدها في عالمٍ لم يعد فيه زوجي ولا صوته.

٢

في عالمٍ غير محسوس ولا محسوب، كنتُ معلّقةً في ظلامٍ دامس، وكأنني أهوي من السماء إلى قاع الأرض في حفرةٍ لا يُعرف مداها.

أشعرُ بجسدي ولا أشعرُ به في آنٍ واحد، يختلطُ إحساسي بالواقع مع خيالاتٍ وأضغاث أحلام.. لا أسمعُ سوى صدى نفسي وخلجاتها.

بدأ النور ينسابُ إلى عالمي فجأة، ورأيتُ نفسي في بستانٍ فسيحٍ تكسو الورود ظاهره ومرأى العين فيه.. وتغطيه الأزهار في ربيعها، والريحُ تجري بين أغصانه بلطفٍ منها ومن فوقها شمسٌ لها لمساتٌ حانية وأنامل ذهبية.

وقفتُ بينها وحدي وكأنني كبيرة الورد كما كان زوجي يناديني، ظللتُ أمشي وأنا أمسحُ على رؤوس الورد بلطفٍ مني فتزداد الورود خجلاً وتنثرُ في الهواءِ نداها.. وتنكفئ على أنفسها.

والريحُ تنقل لي ما تيسّر من روائحَ زكية، وتأخذُ معها ما تطاير من شعري فتداعبُ به عينيّ وجبيني.

ظللتُ أمشي فيُنار طريقي.. أضحكُ فيزيدُ جنوني.. أجري فيفوحُ عبيري.

وكأنني إلهة الورد (فلورا) أو كأنني كل الأشياء الجميلة في حياتي.

لاح لي من بعيدٍ سراب على هيئةِ رجل من سواد، لم يكن جليًّا بادئ الأمر حتى أرجعت النظر مرتين، وفي كل مرة أرى شيئًا جديدًا فيه، كان واقفًا أمام قرص الشمس وقفة المخذولين، لا أرى منه إلا ظهره الذي أداره لي، وشيئًا من صورته وتقاسيم أوصافه تشبه (جيرمانكوس).

تفطّر قلبي فور أن شعرتُ أنه زوجي وحبيبي ورأيتُ ما كان يرتديه من وشاحٍ أزرقَ أهديته إياه في يوم لقائِنا الأول، كان على صورتهِ الشابة التي عرفته بها أول مرة قبل عقدين.

صرتُ أركض نحوه وأنا أسابق الريح ولم أبرح مكاني، عدتُ

أجري بين الورود ولم تتقدم بي الخطا أبداً، كنتُ ماكثةً حيثُ أنا مهما ركضتُ إليه.

لا أعلمُ ماذا يعيقني عن الوصول إليه، شعرتُ أنني لا أريد شيئًا من الدنيا كلها سوى بلوغ أحضانه وعناقه، وأي حرمانٍ كنتُ أشعر به وأنا أراه أمامي ولا أبلغ مرامي.

بدأتُ أبكي وأنا أصرخ وأردد اسمه من بعيد، لم يكن يجيبني وهو الذي لم يتجاهل نداءً لي في حياتي قط.

كنتُ أبكي جاثيةً كطفلٍ صغير عثر على أمه بعد ضياعٍ مريع، وظل يراها من بعيدٍ ولا يقدر على إدراكها، أو كأمٍّ ضاع منها طفلها فظلت تندب الأيام حتى عثرت عليه وبينهما بحرٌ من نار فلا يمكنها احتضانه.

ضياعٌ أشعرُ به في قلبي الموجوع وكأنهُ يحوي مشاعر كل الضائعين.

يختنقُ صوتي بدموعي، فأعودُ للجري مجددًا وأركضُ جهدي، وما أن أقفُ حتى أرى نفسي في مكاني فأعود وأستغيث:

- انظرُ إليّ يا من كنتَ لي الدنيا، انظر وراءك يا من جعلتني أمام الناس، (جيرمانكوس)، يا من وُجد قلبي لأجله، ويا من خُلِقت روحي لتُهدى إليه، أوتتركني وأنا في أحوج الأوقات لك؟ لعناقك، للبكاء عليك، لتحسس وجهك؛ لتجسس نبضك؛ لتقبيلك والسلام عليك؟

انظر خلفك فهنا حبيبتك (أغريبينا) وحيدة.. (أغريبينا) يا (جيرمانكوس).. (أغريبينا) التي كانت لك درعًا وحبًّا وملاذًا يمنحك الأمان ولا يضاهي أمانك الذي تمنحه إياها، انظر إليها خلفك وهي كسيرةٌ حسيرةٌ وأسيرةٌ لك، لا يغادرها الخوف ويتملكها الهلع وتبحث عن شيءٍ يسيرٍ منك يهدئ من روعها.

هل تسمع منها ما يدعوك للالتفات لها؟ إن كنت لا تسمعني فإني أتقرب إليك بما يحمله قلبك لي من حبٍّ أن تسمع قلبك، أو دع قلبك يسمع قلبي، لا أعيرُ اهتماماً لأذنيك عندما أهملتا صوت بكائي وتجاهلتا صيحاتي وندائي، لأن في داخلك قلبًا يسمعني ويصغي إليّ وإن كُنتَ جسدًا بلا آذان صاغية.

لم يصدر عنه ما يوحي بسماعه لي، عدتُ أبكي راكعةً على الأرض، أتذكر أيام عمرنا وأعزي نفسي بها، كنتُ أرى أمامي ما مضى من ذكرياتٍ في أول مرة رقّ قلبي إلى (جيرمانكوس).

كان يملأ أسماع الناس، يتحدثون عن شجاعته في روما كلها، عن قوتهِ وعن انتصاراتهِ في المهام التي أوكلت إليه من الإمبراطور (طايبيروس).

لا أنسى تلك الليلة الباردة التي كنا نأكل بها العنب على بطوننا، ونتسامر أنا وصديقتي (سابينا) في قصرنا أواسط روما، ما انفكت تحدثني عن جمال (جيرمانكوس).. ذلك الجندي الشجاع الوسيم المهيب الحاد الملامح القصير الشعر العريض المنكبين ذي الجسد المفتول والقوامِ الرشيق.

لم أكن لأسمع منها حديثًا طالما يكثر في مجالس النساء، ولكنها أخبرتني عنه كثيرًا ودعتني حثيثًا للخروج يوم غدٍ لرؤية تكريمه بشارة النصر من الإمبراطور في الساحة الرملية الكبرى، نهرتها

ووبّختها، كيف لحفيدة (أغسطس) وسليلة الأباطرة النبلاء مثلي أن تخرج في طيشٍ لملاقاة رجلٌ يخطف الألباب!

وفي سكرةٍ مني، تمكّنت (سابينا) من أخذي معها في الغد، فذهبنا نرتدي ما يليقُ بمقامنا، كنتُ أضع وشاحًا أزرقَ على عنقي، وشعري مجدولًا وفق طريقتي التي عُرفت بها، وألبس من الحرير والقلائد ما يشار إليه بالبنان.

خرجنا نهارًا في يومٍ عليل دافئ الرياح، وكأننا في نزهةٍ عابرةٍ نجوبُ بها الأزقّة والأسواق، والحق أننا خرجنا لنسترق النظرات إلى (جيرمانكوس) ما استطعنا.

كان الحياء يدفعني إلى الخلف كلّما أوشكتُ على التقدّم للأمام، اقتربنا من الساحة الرملية وقد بدأ القلق يسكنني، تتسارعُ أنفاسي من الخجل ولا أدري ماذا دهاني؟ وهل داهمني الخجل لإقدامي على ما لا يليقُ بي أمام الناس؟ أم أن الخجل كان يجتاحني كفتاةٍ خرجت لترى فارسًا يشغل النساء؟

بدأنا نسمع صوته والناس يحجبونه لشدة الزحام والاكتظاظ عليه، كان خطيبًا وفصيحًا ويملك صوتًا كالناقوس، وضعتُ وشاحي على وجهي لأحجبهُ قدر إمكاني، وتقدّمتُ لأراه بين الجموع، و(سابينا) تهمسُ بصوتٍ عالٍ وهي تناديني حتى كاد يُفتضح أمري فما توقّفتُ عن نهرها.

وما أن وقعت عيناي على وجهه من بعيد حتى عادت بي الذكريات وأنا أراه في طفولته يلعب ويجري في الطرقات وبين البيوت، وعلى ما بيني وبينه من صلة قربى، إلا أنني لا أذكرُ لقائي به إلا مرةً في طفولتي ولستُ أحسبها، فقد باعدت بيننا الدنيا حتى نسيته ونسيَني.

وأذكرُ كيف شاع بين الناس نبأ اتخاذ الإمبراطور (طايبيروس) من (جيرمانكوس) ابنًا له فور أن رأى به سمات القادة بعد بلوغه سن الرجولة، فكان الإمبراطور عمه وأباه في آن واحد.

**

طلبتُ من (سابينا) بعد أن تمكّن الحياء مني أن أعود أدراجي وأقف بعيدًا خارج الساحة، ولكنها كانت تعاود إجباري على البقاء غصبًا حيثُكنا فتسحبُ ذراعي بشدةٍ لأدنو منها.

كان الناس يحيون (جيرمانكوس) على ما أبداه من بسالةٍ في دحره للخصوم وإخماده للثورات في دالماسيا وبانونيا[٨] والإمبراطور من بينهم يقلّدُه شارة النصر، والكل يهتفون له مرددِين اسمه، وقعت عيناه على عيني فشعرتُ بالخوف يعتريني، رغم إخفائي لوجهي خلف وشاحي.

فزعتُ وخرجتُ على الفور من الساحة، حاولَت (سابينا) الإبقاء عليّ بين الجموع ولكنني رفضتُ هذه المرة وتركتها وحدها، وقفتُ بعيدًا وما زال وجهي يتوارى خلف الوشاح، أنتظرُ (سابينا) لئلا أعود وحدي، وبعد انتظارٍ يميلُ إلى الطول، جاءت (سابينا) بوجهها المكور ووجنتيها المملوءتين لحمًا، كانت ضاحكةً حتى بانت أنيابها، وتسحب بيدها الأخرى (جيرمانكوس):

- هذه (أغريبينا) ابنة (ماركوس فيسبانيوس)!!

ذهلتُ من حماقة (سابينا) وظللتُ ألعنها في أعماقي بكل شتائم الدنيا، كيف لها أن تزج بي في لقاءٍ كهذا، وقفتُ بصمتٍ وقد وقف ينظر إليّ، و(سابينا) اللعينة تحثنا على الكلام.

ألقى السلام عليّ قائلاً:

- تغيرتِ كثيرًا يا (أغريبينا) وكيف لأنبل النساء مثلكِ أن تقف بعيدًا عن الساحة؟ لمن إذًا تركتِ الصفوف الأولى؟

رددتُ عليه بين لسانٍ معقودٍ وقلبٍ خفّاقٍ ووجهٍ يغشاه الحياء:

- خرجنا للتنزه قليلاً فوجدنا أنفسنا هنا في الساحة وخشيتُ أن يراني الناس في مكانٍ لا يليق بي، فهممنا بالعودة لـ..

داهمتني (سابينا) قائلةً:

- كاذبة، فقد جئنا لنراك هنا

وعندها، وددتُ أن أستل سيف (جيرمانكوس) وأجزّ به عنقها، كانت تضحك وكأنها أسعد الناس بإحراجي، وتُخرج لسانها كالقرد لتغيظني، لم أكن حينها لألقي اللوم على غيري لخروجي برفقة معتوهةٍ مثلها.

تصبب جبيني عرقًا والرعشة تظهر على يدي وأنفاسي، كان جسدي أسيرًا للقلق، تلعثمتُ بشدةٍ وأمسكتُ بذراع (سابينا) ورحتُ راكضةً فسقط مني وشاحي، كنتُ أوبّخها وفي داخلي من الغيظِ ما يُشعل النيران، ظل (جيرمانكوس) خلفنا وهو يناديني بصوتٍ عالٍ وبيده وشاحي ليعيده لي وعلى وجهه ابتسامةٍ طفيفةٍ وأظنهُ يضحكُ علينا، مضيتُ في طريقي كالهاربةِ وبرفقتي صديقتي المجنونة، كانت (سابينا) تضحكُ على ما حلّ بي من جرّاء فعلتها.

أيامٌ مضت قبل أن أستبدل الشتائم بحق (سابينا) إلى صلواتِ شكرٍ وامتنان، لقد كان جنونها بداية اشتعال قلبي ولعًا بـ (جيرمانكوس) وأدركتُ حينها كيف ينال المجانين ما لا يناله العقلاء.

كان يتذرع للوصول إليّ من أجل إعطائي وشاحي، والحق أنني قبلتُ ذريعته ولكنني لم أقبل الوشاح منه، طلبتُ منه أن يحتفظ به فقبله مني كهديةٍ وقد كانت هذه ذريعتي، ظل وشاحي هذا رفيقه في كل حروبه وغزواته بعدها.

**

أن يشعرَ الإنسان بالحب، أن يذوبَ في نفسه وينساها في آنٍ واحد، أن يهيمَ بالتفاصيل الصغيرة من حوله، أن يُحسَ بنبضاتهِ على غير ما كانت عليه قديمًا، وكأنها تنادي في كل دقةٍ لها اسم محبوبه.

أن يمشي متبسّمًا طوال الوقت كالطفل البريء، أن تُزهر الدنيا

بعينه، أن يتحدث إلى نفسهِ في المرآة وعلى الشُّرفات وإلى السماء العليا، أن ينسجَ من خياله قصصًا ويعيش بين ثناياها برفقة من يحب، فهذا شعورٌ عظيم

للحبِ طاقةٌ أقوى من السدِ المنيع، تتبدّد أمامه القيم وتسمو الروح وتنكسر التقاليد، يعصي قلب المحب صاحبه، ويُكثر من التمرّد عليه فلا يطيعه في أحكام عقله ضد محبوبه.

أنا ابنة (ماركوس فيسبانيوس).. الوزير القائد الذي جلب النصر لنا ودك أسطول الخصوم في معركة أكتيوم، أنا حفيدة الإمبراطور الأول (أغسطس) مؤسس عهد الزعامة، أما أمي فقد كانت (جوليا الكبرى) والتي ورّثتني من الرهبةِ في عيونِ الناس ما يكفي لأن أبقى صامدة ولا أتيه مع ذاتي عند أول نبضة حب.

سليلةٌ أنا للنبلاء والأباطرة حتى وإن رحلوا عن الدنيا فإن لهم صيتًا باقِيًا وذكرى خالدة وحملًا ثقيلًا على عاتقي، كان يجدر بي أن أصونه فلا أنزلق إلى أفعالٍ صبيانية، فأجدني في حاجةٍ لأن أحرسَ عقلي قبل أن يحرس الجنود جسدي.

ظلّت الرسائل تصلني إلى حجرتي في القصر من (جيرمانكوس) عبر (سابينا) التي كانت تخبئها تحت ردائها، كانت (سابينا) صاحبة سرّي ولا أحدَ سواها لكي آمنه على حبي الجديد، كنتُ أعرفُ أخباره وأسراره وأقرأ أشعاره وما كان يكتبهُ ويرسلهُ لي.

وقد كنتُ أردُّ عليه ذلك فأحكي له عن أخباري، عن هيامي، وعن غيرتي من حديث النساء عنه.

طال بنا الأمد على حالنا، نتشارك الأسرار والأخبار عبر (سابينا) حتى طَلَبَ مني ذات مساءٍ أن يلقاني، كان تهورًا مني يوم قبلت دعواه ولقيتهُ في الطريق العام، لنا صيتٌ ذائعٌ والناس يعرفوننا، فكيف نخرج على مرأى الناس ونتسامر أحاديث الغرام بشكلٍ تفضحهُ عيوننا وأجسادنا، وكلما حدّثت نفسي قائلةً ستكون هذه المرة الأخيرة، وجدتُ نفسي أقبل دعواه من جديد فأخرجُ كالمجنونة.

**

على مرقدي وفي سريري، لطالما كان يغزو خيالي، يزورني ليلاً فأعانق الأشياء من حولي وكأنها هو، يطولُ بي الليل وأنا أمضي في خيالي أقبّله وأطارحهُ الغرام ثم أسأل نفسي:

- كيف كنا سنعيش لولا الخيال؟

لا أعلمُ كيف صرتُ أجمل من بعده؟ وكيف أحببتُ نفسي أكثر؟ ولِمَ أمسيتُ أطيل النظر في النجوم والسماء؟ أعيشُ وكأنني فراشة، كان يلقِّبُني سرًّا في رسائله بـ (كبيرةِ الورد).. كان يخشى أن يضع اسمي صراحةً فتقع الرسالة في يدٍ غريبة.

كم كان يحبني ويسألني عن كل خصائصه، لم تكن عيناي لتصدقا كيف أن القائد المغوار والشجاع في عيون الناس، يأتي إلي ليسألني عن تفاصيل حياته وكأنه صغيري، يبحث عن العطف والحب والحنان فيأتي إليّ مستسلمًا فيصبح ذلك القائد الفذّ القوي أسيرًا عندي.. يا للحبِّ ما أقواه.

لم يدم بي الحال وأنا أسرح بعيدًا في خيالي، لقد استحال الخيال واقعًا، أذكرُ جيدًا تفاصيل تلك الليلة التي جمعتني به تحت سقفٍ

واحد، جاءني متسللًا منتهزًا انشغال الناس في عيد (ساتورناليا).. وقد كنتُ أسعد الناس بالعيد، كان العيد عيدي وحدي، وفي حجرتي التي دخلها (جيرمانكوس) من الباب الخلفي للقصر، كنتُ قد أعددتُ ما لذ وطاب من الفاكهةِ والشراب وشيئًا يؤكل، والشموعُ من حولي تضيء أرجاءَها وكأنني في صلاةٍ أتقرب بها إلى رؤيةِ عينيه.

وهناك كانت قُبلتي الأولى التي طبعها على يدي وما زلتُ أشعر بها حتى الآن، وبقدر فرحِي الكبير كان حزني البالغ، عندما أخبرني بتلقّيه أوامرَ من الإمبراطور (طايبيروس) تحثّه على ضرورة تجهيز الجيش لقمع عصيانٍ وتمرّدٍ جديدٍ في الراين، انقبض قلبي واختنَقت انفاسي، لا أحبُّ الحروب رغم أني من سلالة فاتحين، ضاقت بي الحال حتى همّ بي ليهدئني عندما ظهر حزني على وجهي.

كان جميلاً تلك الليلة رغم جماله في كل الليالي والأيام، هدأني قائلاً:

- لا تقلقي

وكيف للقلق أن يجد سبيلاً إلى جسدي وأنت أمامي، بقوتك؛ بشجاعتك؛ بعظيمِ مجدك؟ ولكنني أحبك والخوف يعتريني خشيةَ أن يُصيبك ما يصيب الأبطال في غزواتهم.

اقترب مني حتى كاد يلتصقُ بي ثم ظل ينظر إليّ واضعًا يديه على حوضي وقد أحكم تطويقي فشعرتُ أنني من أملاكه، وما أحلاه من شعور، لم يسبق أن كنت على مقربةٍ منه إلى الحد الذي تختلط فيه أنفاسنا، ظللنا ننظر ونبحث عن أسبابٍ تدفعنا لعناق بعضنا بعضًا، وكأننا نريد تبريرًا يسمح لنا بالشروع في قبلة، لا أعلم كيف لهذا الشجاع أن يردعه الحياء أو الخوف مني فيكون عاجزًا حتى بعد احتضاني عن تقبيلي.

مددتُ يدي لأضع كفي على وجهه، وقد كان يحدثني عن مغامراتٍ له ولا أذكرُ شيئًا منها.

كان الهيام يُبحر بي في عينيه الزرقاوين، ثم أنظر إلى شفتيه وهو يخاطبني ويضحك فأرد بضحكةٍ على حديثٍ لم أسمعه.

وما أن شعرتُ أن خجلي من عدم الإنصات له سيفوق

خجلي من تقبيله، انقضضتُ عليه وقاطعته بقبلةٍ تعبر عن لهفتي وأخرستهُ بها، فطالت بنا القبلات حتى استغرقنا الليل كله.

أفقنا بعد انقضاء ليلتنا الدافئة وبينما أنا في أحضانه على سريري أخذتُ أسأله عن رأيه بشجاعتي عندما بادرته بالقبلة، فتبسّم ضاحكًا ثم سألني:

- ما الذي دفعكِ إلى الإقدام عليها؟

أجبته:

- وما الذي يمنعنا من الإقدام على أمرٍ نرغب فيه كلنا؟ تطلبهُ عيوننا وإن لم تنطق به أفواهنا؟

جعل يضحك خارجًا، ثم اختفى بعدها من حيث أتى.

كنتُ أخلَص إنسان له، وكان أخلص لي من نفسي عليه، تمر الأيام والخوف يُغرقني من فكرةِ رحيله إلى حربٍ جديدة، ولا أظنني أطيقُ البقاء هنا وحدي في روما، يحاصرني خوفي ورجائي.. ويجثو الغم على صدري.

أخبرتهُ مرارًا بأن لا يذهب، بأن يسعى للبقاء.. بأن يختلق الأعذار.. بأن يتمارض.. بأن يمكث في الدار.. بأن لا يذهب.. لا يذهب..!

ولكنهُ يغضب، فيسخر مني قائلاً:

- ماذا عن العار؟

وماذا عن قلبٍ من يحبك يا حبيبي؟ ماذا عن جسدٍ يرتعش خيفةً منك وعليك؟ ماذا عن عقلٍ يشغلهُ التفكير بك.. الهيام بك.. الغرام بك.. الشوق إليك؟ ماذا عن نفسٍ لم تعد تعرف السكون، ينتابها الجنون.. تتوق إلى الاطمئنان عليك وترجو الأمان منك.. وتلجأ إليك.. وتقلق عليك؟

أليس من العار ألا نبقى مع من نحب؟ أليس من العار أن تكون سببًا في وجهٍ مشدوهٍ كوجهي الشاحب البائس الذي يبحث عن أملٍ يرد الدماء والماء عليه؟ أليس من العار أن تسيل دموعي باختيارك؟ فتنشغل يدي بكفكفة الدموع عليك وهي التي أَلِفت منك أن تخبئها بين يديك وتحرسها وترعاها كما تحرسني وترعاني؟

**

تمكّنتُ منه حينها، فأقلقهُ تركي وحدي، فعرض عليّ أن أذهب معه في حربهِ حيث سارت جيوشه، فقبلتُ ذلك بلهفةٍ وبهجة وفرحٍ مني، وأظنني أول إنسان في الدنيا يرقصُ فرحًا لدى علمه برحيله إلى حرب، كنتُ أكثر أمانًا من المـعرضين عنها.

طلبني للزواج أولاً فأجبته على عجالة، وانكشف أمرنا بعد شهورٍ طويلة كان وصالنا فيها سرًّا، وصرتُ اليوم امرأته وزوجه على مناظر الناس، والإمبراطور أول العارفين.

أراد الزواج مني ليتسنى له أخذي معه، فانتصرتُ في حربي قبل حربنا التي نزحف بجيوشنا إليها.

**

سنواتٌ قضيتها معه، رافقتهُ بها في كل أسفاره خضت معه حروبه كلها وعشت انتصاراته، أنجبتُ له من الأبناء أقواهم ومن البنات أجملهن، في بضعِ سنين، شعرتُ برغبةٍ في أن أملأ الدنيا من نسله، جاؤوا إلى الدنيا تباعًا، غايوس ونيرو ودروسوس، أما

ابنتي الأولى فقد أصر إصرارًا كبيرًا على أن يُطلق اسمي عليها، يقول لي مازحًا بأنه لا اسم غير (أغريبينا) يأسر قلبه على أنثى، فصارت ابنتي (أغريبينا الصغرى) وصرتُ أنا (الكبرى)، ولم تكن هذه ابنتي الوحيدة، فقد جاءت بعدها (جوليا دروسيلا) إلى الدنيا وكذلك (ليفلا).

وبينما أنا في بلاد الغال برفقةِ أسرتي.. زارني يومٌ مريرٌ أبكاني، فقد بلغني نبأ موت (سابينا) على إثر مرضٍ ألم بها، كان الحزن يقتلني والكرب يعصر قلبي وأنا بعيدةٌ عنها، لقد رحلت صديقة دربي وصاحبة الفضل الأول لما أنا عليه الآن، ظللتُ أبكي عشرة أيام عليها ولو لم نكن في حربٍ ضد القبائل الجرمانية لقطعتُ الطريق عائدةً إلى روما لرؤيتها قبل شروعها في رحلتها إلى مثواها الأخير.

في الحرب، كانت أيامنا مرّة في مجملها، نبكي مرة ونفرح مرارًا، نخسرُ معركة ونفوز في معارك أخرى، أذِنَ لي زوجي أن أتقدم الجيوش قبل نفيرهم، فأخطبَ بهم في كل مرة وأشعل حماستهم للنيل من الخصوم.

كنتُ في جهادٍ بيني وبين نفسي لأبقى قويةً أمام الجيوش وفي قلبي معارك الدنيا.

**

تمر السنون، ويكبر أولادي فيكبر حبي لأسرتي، ويزيد نصرنا على البقاع كلها، أرسلتُ أبنائي إلى روما ليتلقوا تعليمهم هناك، وبقيتُ مع زوجي نجوبُ المناطق الشرقية فاتحين حتى أرخينا الفيالق والجيوش في أنطاكيا.

كنا نعيش في أمانٍ رغم المعارك، حتى اجتاح عالمنا اسم (جينايوس بيسو).

(بيسو) القائد القنصل المقرّب لدى الإمبراطور (طايبيروس) وحامل لواء الحرب والنصر في حملاته وحروبه التي شنّها في أفريقيا وهسبانيا حتى صار واليًا على تلك البقاع.

لم يكن لزوجي ندٌّ ولا نظيرٌ ولا كفوٌ أحد، إلا (بيسو) هذا صاحب الصيت الرفيع الذي خوله لأن ينتمي إلى مجلس الشيوخ في روما بمعية كبرائِنا.

وبينما كان زوجي (جيرمانكوس) حاكمًا على الجزء الشرقي من الإمبراطورية، كان (بيسو) حاكمًا على (هسبانيا وأفريقيا) حتى حدث ما لم يكن بحسبانِ الناس جميعًا قبل حسباني.

أصدر الإمبراطور (طايبيروس) أمرًا يقضي بأن يكون (بيسو) مندوبًا لدى زوجي، فأشغل هذا الأمر الناس وألهب النفوس وأوغر الصدور، فكيف سيتلقى (بيسو) نبأ إعفائِه من المناصب الرفيعة ليصبح مندوبًا لدى قائدٍ آخر يتشارك معه المكانة والمجد والرتبة ذواتها؟

أحس (بيسو) بسوء تقديرٍ له ولكنهُ امتثل إلى أمر الإمبراطور وجاء إلينا في أنطاكيا وبرفقته أربعة جحافل، ونار الحسد تأكل قلبه.

لم يكن بطيّبٍ في معشرهِ طوال الشهور التي مكثها بيننا، وقد كنا نشعر بذلك ونحس بما يكنّه لنا، لم تسكن الراحة قلبي منذ أن رأيته مقبلاً علينا بوجهٍ عابسٍ كالشيطان، وابتسامة تبعث على الريبة، ووجهٍ حليقٍ بذقنٍ طويلٍ ورأس أصلع وأنفٍ عريض وفكٍّ أعرض.

كان (بيسو) يتربص بزوجي آناء اليوم كله ويُضمر له الشر والعداء، كان كالرقيب عليه وليس مندوبًا له، حاولتُ أن أطلب مرارًا من زوجي أن يُبعده.. أن يُقصيه.. أن يُعفيه.. فيرد عليّ بنبرة حادة:

- إن كان (بيسو) قد امتثل لأمر الإمبراطور وارتضى أن يصبح مندوبًا لي، فكيف لا أمتثل أنا للأمر ذاته؟

كشفت لنا الأيام أمورًا فصَدَقت ظنوني، أراد (بيسو) أن يضرب وحدتنا، أن يؤلب الجيوش على قائدهم نكايةً به وحسدًا له، لم يكن على وفاقٍ مع زوجي (جيرمانكوس) فظل يؤلب الناس سرًّا ويؤججهم عليه، كان يبعث بخطاباتٍ إلى مقام الإمبراطور في روما ليُطلعه على آخر أخبار الجزء الشرقي من الإمبراطورية، فيكتب في خطاباته ما يسيء إلى زوجي، كان معظم المكتوب فيها كذبًا وتدليساً، حاولتُ أن أمنعهُ ولكن القضاء يمنعنا من التدخل فيما يكتبه المندوب، كان لدى (بيسو) سلطةٌ وصلاحياتٌ وثقةٌ وحصانةٌ منحها إياه الإمبراطور، فظل كالجحيم حولنا يأكل فينا ولا نقوى على إخماده.

نجح في إفساد بعض الجنود علينا، فأشعل فتيل التفرقة بيننا، وشق صفوفنا وشرع في تفكيك نسيجنا، ثم أخذ يبعثُ إلى الإمبراطور بأخبارٍ خاطئةٍ كاذبة؛ يصف فيها ظلم زوجي لرعيته وتمرّده على أوامر الإمبراطور، ثم ظل يرسل إلى روما خطاباتٍ ملؤها الأكاذيب والزور والجور.

لقد فعلها وجعل الإمبراطور (طايبيروس) في شكٍّ من أمره حيال زوجي، وأربكه بإخباره أن الشعب والجيش في صدد إحداثٍ ثورةٍ وانقلابٍ ضد (جيرمانكوس).

كان يختلق القصص ويوهم بها مجلس الشيوخ في روما ودون رادعٍ لما لديه من حصانة، أراد زوجي تدارك تلك الأكاذيب بعد افتضاح أمرها، فبعث بسريةٍ إلى روما لملاقاة الإمبراطور هناك وتبيان الحقيقة كما هي.

فعرف (بيسو) عن ذلك ثم بعث بدوره خطابًا إلى الإمبراطور ليخبره فيه أن ما قام به (جيرمانكوس) ليس إلا محاولة لتلميع صورته لديك والمضي في تضليلك بعد ما ظهر ما ظهر من أمره.

كان (بيسو) يكتب خطاباته بسريةٍ عالية، كنتُ أعرفُ مضمونها عبر أحد رجالاته الأوفياء والذي يدعى (أنطونيوس)، كان مخلصًا لنا وكارهًا لتدليس الحقيقة، ربما لضميره الحي والصادق، استأمنني على حالهِ عند بدء الأمر وطلب مني ألا أخبر أحداً فأعطيته وعدًا بالكتمان، وصرت أعرف خلاله ما يدور في الخفاء.

**

وفي الصيف، انتهز (بيسو) فرصة سانحة عندما خرج زوجي برفقة حرسه لتفقد أحوال الرعية في مصر، فبعث بخطابٍ يخبر فيه الإمبراطور (طايبيروس) بهذا الانتهاك الصارخ للقوانين، فقد استحدث الإمبراطور قانونًا واضحًا يجرّم فيه سفر أصحاب المناصب والرتب العالية إلى مصرِ دون إذن منه، ولأن (بيسو) لم يخبر (جيرمانكوس) بتلك القوانين الجديدة كمندوبٍ له، سافر زوجي إلى مصر جهلاً منه بذلك، فسال لعاب (بيسو) وبعث فورًا بخطابٍ ظاهره التشنيع وباطنه التهويل، لقد أنزل ألوان

الشتائم والتدليس في حق زوجي، ووصفه بالمتمرد على أوامر الإمبراطور ومنهاجه.

ردّ عليه الإمبراطور بخطابٍ لم يسعفني حظي العاثر أن أعرف ما فيه، حاولتُ أن أسأل (أنطونيوس) ولكنهُ ظل صامتًا هذه المرة وكانت عيناه تفيضان بالدمع، امتنع عن الكلام ورحل عني وتركني خلفه أرجوه أن يخبرني بشيءٍ منه.

عاد زوجي من مصر بعد شهرين قضاهما هناك، فكان شوقي وتوقي إليه عظيمَين، عانقتهُ ساعة وصوله أمام الناس والفرحة تغمرني، كانت تطربني أهازيج الناس وترحيبهم وهتافاتهم، شعرنا وكأن الشمس في أنطاكيا لن تغيب بعد هذا اليوم أبدًا.

تاقت نفسي إلى الاختلاء بزوجي في حجرتنا مساءً، وأن أقضي الليل كله معه.. نتسامر ونتبادل أطراف الحديث، ويُطلعني على رحلة مصر وأحوالها، أخبرتهُ بما استجد من أمر (بيسو) فلم يكن ليأبه به، أخبرني أن المجد ينتظرنا.

تسلل الحب إلى حديثنا فمارسناه على أشكاله، اختطف النوم عينيّ بينما أنعم بالدفء في حضن زوجي الذي افتقدته.

استيقظتُ على جيوشٍ تداهم حجرتي وتضرب زوجي وتضربني حتى أغمي علي، فوجدتُ نفسي بعدها في حلمٍ غريبٍ عثرتُ فيه على زوجي في بستانٍ فسيحٍ ولم يلتفت لي أبدًا.



٣

أفقتُ من تلك الرؤيا البائسة، وقد جاهدتُ عينيّ الثقيلتين على فتحهما، وشيءٌ في داخلي يريد أن يرى الواقع مرةً أخرى، لدي من الأسئلةِ ما يجعلني أسارع لأنهي حلمي اللعين

لم يسعفني بصري بادئ الأمر، كنتُ أشحذ النظر لأرى الشواهد حولي بوضوحٍ فتخذلني عيوني وكأنني أنظرُ في سراب.

وجدتُ نفسي على سريري ويغشاني التعب الشديد وعظامي أوهن الأشياء في حجرتي، كانت الدماء الجافة تغطيني وتكسو رأسي وجبيني وتلتصق بشعري، تحسّستُ رأسي بادئ الأمر وأنا أئن من الألم وأعضُّ على شفاهي، أدركتُ أن ضربة الدرع قد شجّت رأسي، لم يتسنّ لي ملامسة الجرح بيدي، فقد وضعوا لفافات وضمادات على الجرح لإيقاف النزيف ولا أظنهم يُحسنون شيئًا.

- لقد استيقظت (أغريبينا) .. !

هكذا صرخ أحد الجنود في حجرتي، فزعتُ وأنا أرجفُ وجسدي مدهونٌ بالعرقِ من الخوف، سألتهم: أين زوجي؟ لمَ فعلتم بنا هكذا؟ ماذا تريدون منا؟

كانوا خمسة جنودٍ مسلحين لا يشبهون الجنود الذين داهموني، وجدتهم وقد طوقوا حجرتي وأحكموا الحراسة على بابها، تعرّفت على ملامحهم بادئ الأمر وقد تذكّرتهم جيدًا، كانوا جنودًا مخلصين لنا ولا أعلم عمّا دفعهم إلى حصاري؟

أخذتُ أبكي بشدةٍ وأسألهم عن (جيرمانكوس) وكانوا صامتين، طلبوا مني بعد أن تعالى صوتي وصراخي أن ألزم الصمت وأن أبقى في سريري، سألتهم مرة أخرى وأنا أغصُّ بدموعي: لمَ فعلتم ما فعلتموه بنا؟ أين زوجي؟ أين أخذتموه؟

لم يكن ليجيبني أيٌّ منهم.

نهضتُ من على سريري فأشهر أحدهم سيفه في وجهي وطلب

مني الرجوع إلى السرير، شرعتُ في التوسل إليهم أن يخبروني أين زوجي؟ ماذا تريدون مني؟ أتقرب إليكم وأسالكم بالآلهةِ كلها وبكل ما هو مقدسٌ أن تخبروني ماذا تريدون؟ ولم فعلتم بزوجي فعلتكم؟ هل صدر منا ما يؤذيكم؟ هل جرنا عليكم أو تجبّرنا عليكم أو بغينا عليكم أو ظلمنا منكم أحدًا؟

ما كان جوابهم إلا أنها أوامر عليا، وليسوا إلا بمأمورين.

عدتُ أبكي بشدةٍ وقد ولَّيْت وجهي شطر وسادتي، لعل الرحمة تتنزل على قلبِ أحدٍ منهم فيخبرني عن مصير زوجي، لقد قست قلوبهم ولم يُحركهم عويلي، عدتُ لأسألهم مرارًا ولا من مجيب، طلبوا مني الصمت والهدوء حتى يأتي من يخبرني عن كل شيء.

انتظرتُ لساعاتٍ طوالٍ وأنا أصلي في سريرتي وعلى سريري، أشعرُ بالبرد رغم دفء حجرتي ولكن الخوف يعتريني فينزع الدفء عن جسدي، احتضنتُ نفسي وأنا أبكي وأتوسل إليهم ولا يفيدُ رجائي.

كانوا يقفون عن يميني وشمالي وحول بابي، ينظرون أمامهم، لا يطرأ على ملامحهم أي تغيير كانوا كالتماثيل بل أشد صلابةً منها.

وما أن أوشكت الشمس على الزوال حتى قُرِع الباب، فدخل (أوراليوس) الذراع الأيمن للقائد (بيسو) وبرفقتهِ حرسٌ كثيرٌ لا أعرفُ منهم أحدًا سوى (أنطونيوس) ذلك الجندي الوفي الذي كان يخبرني بما يضمرهُ (بيسو)

دخل (أوراليوس) ممسكًا خوذته بيده، وشعره المشتعل شيبًا يتطاير في الهواء كمشلحه الأحمر المتصل بردائه، كان أول ما فعله هو النظر إليّ بعيونٍ مُريبة، ثم سألني إن كنتُ بخيرٍ، فأجبته:

- وهل تراني بخيرٍ وأنا أبكي أمامك؟ لا أعرف أين زوجي ولا أعرف ماذا تضمرون لي وماذا تريدون مني؟ لا أحدَ من أسرتي حولي والخوف يهدّني ويهزني ويدكّني وحدي بلا زوجٍ ولا أبناءٍ وبين حرسٍ مُسلّحين ورأسٍ تغطيه الدماء وتسألني إن كنتُ بخير؟ كيف للخير أن يسكن جسدًا كجسدي؟

رأيتُ الرحمة تطغى على وجه (أنطونيوس).. كان يشيحُ بوجههِ عني ويطأطئ رأسه رأفةً بحالي، والدمع يُغرقني.

حاول (أوراليوس) أن يهدئني، رفضتُ أن أسمع شيئًا منه قبل أن يخبرني أولًا أين زوجي (جيرمانكوس)؟

أجابني أن زوجي بخيرٍ، وأن ما حصل كان بأوامر الإمبراطور (طايبيروس)، لقد بعث بأمر إحضار (جيرمانكوس) إلى روما للبدء في محاكمته على ضوء انتهاكه لقوانينَ كثيرة.

أخبرني بأني سأبقى تحت حراستهم هنا لأيامٍ وسأتلقى العناية منهم حتى يغادر (جيرمانكوس) إلى روما ويستقر الحال بين الناس.

رجوتهم وتوسلت إليهم وتقربت لهم بكل ما يصلحُ للقربان أن يسمحوا لي برؤية زوجي قبل ترحيله إلى روما، ولو لمرةٍ واحدة.. لمرة واحدة فقط.

أطال (أوراليوس) التحديق بي ثم أخبرني أن ذلك مرهونٌ بمدى طاعتي لأوامرهم، سألته ماذا يريد مني؟ أخبرني «أن ألزم

الصمت وألاّ أخبر الناس بما حصل، فقد أمر الإمبراطور أن يكون إحضار (جيرمانكوس) إلى روما بسريةٍ بالغة إلى الحد الذي لا يعرف الناس فيه عن ذلك، أخبرناهم أن (جيرمانكوس) سيسافر كعادته لملاقاة الإمبراطور في شؤون الحكم، تبقى أن تمدي لنا يد العون في ذلك فلا يبلغ الناس ما يثير ريبتهم أو يربك صفوفهم، وعندها سنحضركِ لملاقاة زوجك».

خرج (أوراليوس) من الحجرة وجعلني حسيرةً خلفهُ والحزن يقتلني، وقبيل خروجهم نظر (أنطونيوس) إليّ نظرة حزنٍ وخرج برفقتهم.

امتثلتُ لأوامرهم فأحكمتُ الإطباق على فمي ولم أخبر أحدًا بذلك، بل طلبتُ منهم أن يسمحوا لي بالخروج من شرفتي فيراني الناس وألقي عليهم سلامي فلا يشوبهم شكٌّ في أمر حصاري في منزلي.

ظللتُ لأيامٍ حبيسة حجرتي، يُحضرون لي الطعام والشراب والعلاج ويتناوب الحرس على حصاري وإجباري على الإقامة في الحجر المنزلي.

أُمنّي نفسي مع كل إشراقة يومٍ جديد أن ألقى فيه زوجي قبل رحيله فتخيبُ آمالي.

**

أوشكت شمس اليوم العاشر أن تشرق، ولم أكن لأستلذ في نومي كعادتي، عاهدتُ نفسي ألا يستقيم لي مزاجٌ ولا يطيبَ لي جفنٌ ولا يهدأ لي بالٌ قبل رؤية (جيرمانكوس) والاطمئنان عليه بنفسي.

وبينما يجري تدويل الحرس والجنود واستبدالهم فيما بينهم، حان دور (أنطونيوس) ليحرسني، وقف على الباب بعد أن ألقى سلامه، لم يكن وحده فشقّ عليّ الحديث معه، أدركتُ الآن لمَ لم يخبرني عن مضمون خطاب الإمبراطور الأخير إلى (بيسو)، أراد مراعاة شعوري، كم أنت شهمٌ يا (أنطونيوس).

سألته وعلى مرأى الجنود: هل يأذن لي بدقائقَ للتحدث إليه وحدنا وفي أمرٍ خاصٍّ وبالغِ الضرورة، نظر إليّ بصمتٍ ثم طلب من الجنود الآخرين أن يخرجوا قليلاً ليعرف ما ورائي.

سألتهُ بصدقٍ أن يخبرني أين زوجي ومتى سألقاه فقد طال انتظاري والانتظار يقتلني؟

كان مترددًا بادئ الأمر، وكأن الكلام يقف على باب لسانه فلا ينطق به، حاولت استنطاقه وقد بدا عليه القلق، يشيح بوجهه كثيرًا وعيناه لا تهدئان.

طلب مني أن أعذره وأتفهم امتناعه عن الحديث في هذا الأمر، فتوسّلتُ إليه أن يخبرني ولو بالإشارة أين زوجي؟ أخذ مني عهدًا ووعدًا بأن ألزم الصمت بعدها وكأنني لم أسمعْ شيئًا

بدأ قلبي ينبضُ بشدةٍ كطبولٍ تُقرع في حرب، وأخبرني بما لم أقوَ بعده على الوقوف:

- لقد غادر (جيرمانكوس) إلى روما منذ يومين.

بدأتُ أبكي بشدة فبدأ يمسح عليّ بحنانٍ منه ثم طلب مني أن ألزم الصمت كما وعدته، فوضعت ُكفي على فمي لأكتمَ بكائي الذي يحاول الخروج من فمي مندفعًا كسيلٍ جارف.

عاد (أنطونيوس) وطلب مني الهدوء من جديد، وأخبرني بأن الأمر يهدد حياته في حال عرف أحد الجنود أنه أطلعني على أسرارهم.

دخل الجنود بعد سماع بكائي، فهب (أنطونيوس) واقفًا وتظاهر أنه يجهل ما حلّ بي، أخبرهم أنني سألته عن أولادي وأنني اشتقت إليهم.

عدتُ لأبكي بشدةٍ وأنا أصرخُ باسم زوجي (جيرمانكوس) ويحاول الجنود تهدئتي، فأعود لأصرخ عاليًا باسمه، لم يقدروا على ضبطي بعد أن شرعتُ في خمش وجوههم بأظافري، طرحوني أرضًا ووضعوا الأغلال علي يدي وعلى رجلي فشُلّت أطرافي عن الحركة ووقعتُ في الأرض جاثية في نوبةِ بكاءٍ.

أكثرتُ من النياح بعدها وأنا أردد اسم زوجي لعل ندائي يصله في طريق سفره فيعود لي.

ولكن لم يصله ندائي ولم يسمعني، حاولتُ الوقوف والمشي فلم أبرح مكاني ولم تتقدم بي الخطا بفعل قيودي، رأيتُ زوجي

في مخيلتي ماضِيًا في سفره ويحاصره الجنود.. لم أرَ إلا ظهره من الخلف وهم يقتادونه إلى روما.. عاودتُ نداءَه فلم يلتفت لي حتى في خيالي.. كأنهُ حلمي..!

٤

استطاعت الأيام أن تجفف جرحي الظاهر على جسدي، ولكنْ في القلب جرحٌ غائرٌ لن يجف ولو بعد حين، كيف لحياتي السعيدة والفاضلة أن تنقلب بسرعة البرق؟ كل الِحكم والأمثال التي سمعتها في حياتي عن فجأةِ تبدّل الحال لم تكن مزحة، فها أنا أقضي أيامي أسيرةً في حجرتي بعد أن كنتُ أميرةً فيها.

امتنعتُ عن الطعام إضرابًا عن الأكل، ثم عدتُ آكلةً مما تيسر من طعامٍ يُبقيني على الحياةِ لأجلِ أبنائي.

بكيتُ حتى انتفخت عيناي وأفرغتُ كل ما فيهما من دموع، حالةٌ من الإيمان والصبر تجتاحُ جسدي فتبعثُ في داخلي السكينة.

دخل (أوراليوس) عليّ في اليوم التالي بمعية رفاقه، أخبرني آسفًا أن زوجي رحل إلى روما ولم يعد بمقدوره جمعنا، تظاهرتُ أنني لا أعرفُ عن ذلك وتمالكتُ نفسي وأنا أنظرُ إليهم بخشوعٍ مني ولم أهمس بكلمة، تساقط دمعي رغم أنفي ولكني كنت أقوى

هذه المرة، ربما لأنني أَلِفتُ البكاء على زوجي وأكثرتُ من الإيمان والأماني بلقائي به عن قريب.

سألتهُ عن مصيري فأجاب:

- ستبقين هنا لأيامٍ تحت رعايتنا قبل أن نأذن لكِ بالخروج من القصر.

كان (بيسو) ماضيًا في سيطرته على أنطاكيا، برجاله وشرائعه، كانوا ينتشرون في المدينة كأسراب طيورٍ مهاجرة، وكنتُ أنظر إليهم من على شرفتي، والجنود من خلفي يملؤون الحجرة.

لا أعلمُ إن كانوا يعدّون لأمرٍ ما، ولكن تجهيزهم لأنفسهم والتدابير التي اتخذوها في إحكام قبضتهم مُريبة.

ما زال (جيرمانكوس) يزورني في أحلامي، وما زلتُ أراه في طريق سفره مستدبرًا لي، فأصلي في أعماقي أن يصل إلى روما بأمانٍ وسلام حتى ألحق به وألقاهُ هناك.

أفقتُ في اليوم التالي على صوت أهازيج خارج القصر، أردتُ

النهوض لأرى من شرفتي ماذا يدور في الخارج فمنعني الجنود، كان الأمر مقلقًا ومروعًا.

سمعتهم ينفخون في مزامير الوفود إيذانًا بوصولِ قافلةِ سفر، ولا أعلمُ عمّن أقبل علينا.

والحقّ أنني لم أفهم عندما سمعت أحد الجنود يصرخ قائلاً:

- لقد عادت قافلة روما.

وبين تعجّبٍ وخوفٍ وشوقٍ وأسئلةٍ كثيرة وجدتُ نفسي أركضُ نحو الشرفة رغمًا عنهم، تختلطُ مشاعري فلم أعد أعلمُ أي شعورٍ منها يحركني أو يغالبني على نفسي.

لم أرَ شيئًا من الشرفة، فالقافلة لم تكن في مدى الرؤية من إطلالتها، حاولتُ مد عنقي للخروج أكثر حتى أسترق النظر من الجهةِ اليمنى فلم يسعني ذلك، حاولتُ مرارًا حتى قاطعني جنديٌّ من الخلف وسحبني بشدةٍ ليعيدني إلى حجرتي والشوق والخوف يتملكانني.

نعم، تبين لنا أنها قافلة (جيرمانكوس) عادت من طريقها إلى روما، ولا أعلمُ عنها شيئًا حتى الآن، هل أجابت الآلهة صلواتي وخالص دعائي فأرجعت زوجي؟ هل سمع زوجي ندائي وإلحاحي عليه بالعودة لي؟ هل رقّت قلوبهم بعد قسوتها فأذنوا لحبيبي بالعودة؟

فيَّ من اللهفةِ ما يقارع الجبال طولاً وما يجاوز السماء، جلبتُ المشقة للحرس من حولي عندما كنتُ أقف وأصلي وأقفز أثناء جلوسي على سريري من الفرحةِ والرجاء، أكثرتُ عليهم من سؤالي عن زوجي وكيف أراه؟ وكانوا يجبرونني على الصمت.

**

هل سبق وأن كنتَ في كهفٍ مظلمٍ عاتمٍ ويحيطك اليأس داخله من كل مكان؟ ثم يأتيك من العدم نورٌ فيضيء لك الطريق؟

هل عشت إحساس من أوشك على مفارقة الحياة عطشًا في صحراءَ مقفرة فألقى نفسه على الأرض مستقبلاً حتفه وفي بداية احتضاره تمطر السماء عليه فتحييه؟

هكذا كنتُ أنا يوم أحيوني من جديدٍ بعد أن كنتُ أموت في جسدي، وروح الألم حبيسةٌ فيه، بلا رجاءٍ ولا أمل، ظلامٌ دامس أنارهُ خبر عودة (جيرمانكوس)

وصلت قافلة الوفد عصرًا، كنتُ أسمعها ولا أراها، وكفى بسمعي ليسعدني.

عاودتُ إرباك الجنود والحرس عسى أن يأذنوا لي بالخروج أو يأتوا برفقتي لأرى زوجي وكانوا يرفضون ويعزون ذلك لعدم تلقيهم أوامر عليا، عدتُ أبكي أمامهم وأتوسل إليهم وأرجوهم ولم يجدِ ذلك بهم نفعًا.

دمي يفور في شراييني، ووريدي شارف على الانبجاس، وقلبي يتسارع في نبضه ولا أقوى على الجلوس في مكانٍ واحد لدقائق معدودةٌ من الهلع.

أجوبُ أرجاء حجرتي يمينًا ويسارًا لعل الفرج يأتي بأن يفتح الباب زوجي فيعود الماء إلى مجراه.

سمعتهم يقرعون الطبول والأجراس بعد ساعة من وصول

القافلة معلنين بذلك عن خطابٍ سيُلقيه أحد القادة، فكان (أوراليوس)، خرج حزينًا في الساحة كِما أخبروني، كان صدى صوته يبلغني، فأخرجُ من شرفتي لأحاول التقاط صيحاته بين الأهازيج.

أعلن (أوراليوس) خبرًا تقشعر له الأبدان على حد وصفه، أخبر الناس ببالغ الحزن والأسى الذي لم يكن يظهر عليه، بأنهم لم يتمكنوا من إكمال مسيرهم إلى روما بعد أن تعرض (جيرمانكوس) إلى أزمة صحية قضت عليه، جاء (أوراليوس) ليخبرنا أن (جيرمانكوس) مات فجأة بينما هم في طريق سفرهم، معلنًا بعدها أن مقاليد الأمور ستكون بيد الحاكم الجديد (جينايوس بيسو).

خرَّ جسدي على الأرض رغمًا عني، بدأتُ في لطمِ وجهي وتقطيع شعري والندب على زوجي وأنا أصرخ باسمه من على شُرفتي، و(أوراليوس) يتحدث عن خبرِ موت (جيرمانكوس) المريع والصادم وعن حالة الألم الشديد التي حلّت به وهم في (إبيدافني) قرب أنطاكيا.

لم أكن لأراه ولكن أسمعه، وكفى بسمعي ليحزنني..

سمحوا لي أخيرًا أن أنزل هذه المرة لأرى جثمان زوجي، وضعوه على مدخل القصر تحت الحراسة، كنتُ تحت حصار الجنود حتى في طقس وداعي الأخير.

نزلتُ ثم رأيتهُ ممددًا من بعيدٍ وكأن جسدي فارغٌ لخفةِ وزني ولشدة خوفي، والدموع تنهمر ولا أعلمُ كيف رُبط على قلبي وكيف غزتني السكينة والطمأنينة.

اقتربتُ أكثر حتى شارفتُ على الوصول إلى جثمانه، وما جرى لي حينها أصعب من أن يُروى.



٥

«بأمر الإمبراطور (طايبيروس) تُعاد (أغريبينا) إلى روما»

هكذا قرأ (أوراليوس) خطاب الإمبراطور على رأسي بعد أن دخل إلى حجرتي، كنتُ جالسةً كعادتي على سريري، أسرحُ كثيرًا في خيالي، وعيناي شاخصتان ولا أشيحُ بهما عن النظر أمامي وبالكاد أرمشُ أو أرى، كان الحزن باديًا على وجهي الشاحب الهالك لكثرةِ ما بكى، لم أنطق بكلمةٍ واحدة طوال الأيام الماضية منذ أن مات زوجي، ربما أطبق الغمّ على فمي أو شلّ الحزن لساني، كنتُ صائمةً عن الكلام والصومُ منجاتي.

تتزاحم الأفكار في رأسي:

- ماذا سيحل بي أو بأولادي؟ أموالي؟ إرث زوجي؟ كيف ستكون الدنيا بعد أن صرتُ أرملة؟ وهل سأجدُ فيها ما يدفعني للعيش فيها؟

مات زوجي بغتةً كما يُقال، وما أن شاع نبأ وفاة (جيرمانكوس) حتى جال أصقاع العالم ووصل إلى روما، فخيّم الحـزن على الناس، وإني لأجزمُ إن الحزن في قلبي لأكبرُ من كل هؤلاء الناس مجتمعين.

وبعد أيام، أرسل الإمبراطور طلبًا في استدعائي للعودةِ إلى روما، والحق أنني لم أعد أبالي في أي البقاع رموني

خرج (أوراليوس) من الحجرةِ بعد أن أخبرني بضرورة تجهيز أمتعتي ورِحالي قُبيل عودتي في الغد إلى روما، لم أكترث بما سيؤخذ معي من أمتعةٍ وأثاثٍ ولباسٍ ومؤن، كان جل اهتمامي أن آخذ معي رُفات زوجي بعد أن أحرقوا جثمانه وجمعوا لي الرماد في فخاريةٍ حمراء مذَهَّبة الأطراف، أخذته معي ليُدفن كما يليق به في ضريح أغسطس في روما، إلى جانب النبلاء والأباطرة كما ينبغي.

**

أطلّت شمس اليوم الجديد، ولم أعُدْ تلك الفتاة التي تحب الشروق، ما زال النوم يهجرني واليأس يتملكني والصمت يسكنني والذكرى المريرةُ تقتلني، كل الأشياء تكالبت على قلبي، وكيف لإنسانٍ مثلي أن يحتمل كل هذا؟ زوجٌ ميتٌ أحتضن رفاتهُ بين يدي، وطريقٌ شاقٌّ أقطعهُ وحدي برفقة جنودٍ يحاصرونني، وأولادٌ يسكنون روما وتجتاحهم وحشةٌ لما حل بوالدهم ووحشتي عليهم وعلى زوجي تجتاحني.

نزلتُ من قصري برفقة جنودٍ وحرسٍ لا أذكر عديدهم، مشينا في الطريق المؤدي إلى قافلة السفر، ومن الناس من يلقي عليّ سلامه فأردُ عليه بنظرةٍ منّي على عجالةٍ وأظنهم يعذرونني، فمن أبصر في وجهي وأدرك حالي البالي ما كان يرجو مني سلامًا، كنتُ كالجثةِ أمشي بين الأحياء، وأحملُ في يدي رفات جثةٍ ستظل حيةً في قلبي سائرَ عمري.. جثةٌ تحمل جثة

ركبتُ في العربة والحرس من حولي يرحّبون بوصولي، أعدوا لي العدة والعتاد وشرعنا في السفر، ما زلتُ صامتةً بشكلٍ يُقلق حتى الصمتَ مني، لمحتُ (أنطونيوس) من بين الجموع المرافقة

لي، لهذا الرجل النبيل فضلٌ لا أنساه، وكم أسعدني وجوده معي، بدأت القافلة رحلة سيرها، ولستُ أدري إن كانت ستصل بي إلى روما، أم ستعودُ بي إلى هنا مرةً أخرى وأنا جثةٌ هامدةٌ كحالِ زوجي.

٦

«وفي طريق سفري لم أكن لأشعر بطول الوقت ولا ببعدِ المسافة، كنتُ أتحدَّثُ عبر قلبي إلى رفات زوجي، لم يكن لليل وحشةٌ وأنا أحملُ (جيرمانكوس) بين يدي، كان يحميني ويُشعرني بالأمان حتى وإن كان رُفاتًا، كنتُ أغرقُ في نفسي لأهرب من كآبة السفر ومن أصوات القافلة وثرثرة الجنود واهتزام الخيول وصرصرة الريح والدواب، أردتُ أن أفرّ ممّن حولي وأن ألجأ لنفسي فأسكنَ فيها، اختبأتُ في جسدي ونفسي طوال الرحلة، كنتُ صامتةً مُبحرةً في خيالي الذي أعادني لأيام يُسري وسروري».

أغريبينيا الكبرى.



| ٧ |

تعالت أصوات المزامير مطلع الصبح، فصرخ بعدها سائسٌ للخيول قائلاً:

- هنا روما

أفقتُ من غفوتي وأطللتُ برأسي من فوق العربة لأرى بعيني صدق وصولي، فلاحت لي روما من بعيدٍ كالسراب وكأنها تُحييني، وقد تاقت نفسي لرؤيتها بعد أن باعدت بيننا السنون.

هنا ترعرعت وهنا أنتمي وهنا شيءٌ من روحي على هيئة أبناءٍ لي.

ما زالت كما تركتها، عظيمةً منيعةً مهيبةً بجدرانها وحصونها ومعابدها وقلاعها وملاعبها وتماثيلها وسائر ساكنيها وكل الطرق التي تؤدي إليها.

طغت الفرحة على الجنود ساعة الوصول، فطفِقوا يرددون

أغنيةً سخيفة ولستُ أكذب فبعضُ الفرح يغزوني، أدنيتُ رأسي على مقربةٍ من الفخّاريةِ التي أحتضنها بين يدي منذ بدء الرحلة، فهمستُ بكل حبٍّ لرفاتِ زوجي فيها وأخبرتهُ عن وصولنا.

لم أتمالك نفسي عندما اقتربنا أكثر فسالت دموعي، بدأ الكشّافة على أسوار روما بالنفخِ في المزامير تبعًا لمزاميرنا وإيذانًا بوصول قافلة سفرٍ إليهم.

أوشكت رحالنا أن تحط أخيرًا، خرج الناس لاستقبالنا في جماعاتٍ كبيرة، والحقّ أن حفاوتهم لوصولي أسعدتني فتبسّمت لهم، تألم وجهي أثناء تبسّمي، لقد طال البؤس والحزن على وجهي حتى شقّت عليه البسمة.

أنزلوني وما زلتُ أحملُ بيدي رفات زوجي، شرعتُ في المشي حتى وقعت عيناي على أبنائي وبناتي في الصفوفِ الأولى، انفجر الحزن في داخلي ورحتُ أركضُ نحوهم وأنا أصرخُ وأبكي ويعلو نياحي، فبادلوني الجري والبكاء حتى احتضنتهم جميعًا، شعرتُ أثناء عناقهم أنني وجدتُ الغذاء والدواء لروحي، كنتُ أغرق بدموعي وأنا راكعةٌ على الأرض بعد أن خرّ جسدي ولم تحملني

عظامي، ويقف أبنائي حولي (نيرو ودروسوس وغايوس وجوليا ودروسيلا وأغريبينا الصغرى) كانوا في بهائِهم كالآلهةِ المضيئةِ في عليائها ويبكون عليّ بمرارة، لم أقف لمواساتهم وأنا التي لطالما كنتُ معهم لأخففَ عنهم أحزانهم وأطبطب عليهم آلامهم وأمسح لهم دموعهم، بل كنتُ الأحوَج هذه المرة من بين كل هؤلاء الستة إلى الطبطبةِ ومسح الدموع.



٨

ماذا سيفعل لو علِم بعلمي للحقيقة؟ وكيف سيواري سوءته عني؟ انكشف لي المستور ولم أبذل جهدًا في كشفه ولم أسعَ خلفه، وما زلتُ أحاولُ تهيئة نفسي لملاقاة الإمبراطور ومواجهته بما نما إلى علمي، وبيننا الأيام يا (طايبيروس).

اشتعل فتيل الحقيقة بينما كنتُ أقفُ على قبر زوجي بعد شهورٍ من دفنهِ في ضريح (أغسطس)، أزورهُ بانتظامٍ مني لأخبرهُ عمّا استجد من أمري وأحوال أولادي.

فإذا برجلٍ يدخل خلفي إلى الضريح، كنتُ أسمع سعاله فور دخوله ويبدو مريضًا، لم ألتفت له، ظل يتقدّمُ إليّ فأسمعُ صوت خطواته تقتربُ مني حتى أيقنتُ أنهُ يقصدني في مشيتهِ فأدرتُ رأسي فكان (أنطونيوس)

سعدتُ برؤيته فاقتربتُ منه بلهفةٍ لتحيّته فطلب مني ألا أقترب منه خشية أن ينقل لي العدوى، لقد بدا شاحبًا ومُتعبًا وتسيلُ الدماء مع كُحته وسعاله.

أخبرني بأنهُ كان يرصدني، وأنهُ على علمٍ بأوقات زيارتي للضريح وأن مجيئه إليّ لم يكن بمحض مصادفةٍ على الإطلاق.

أراد الاختلاء بي هنا في يومٍ هادئٍ لا نسمعُ فيه سوى تغريد الطيور فوق الأشجار التي يُحرّك النسيم العليل أغصانها.

- إن صدري الذي يؤلمني ويرشقُ دمًا مع سعالي، لأهونُ عليّ من جرحٍ في جوفي سيظلُّ ينزفُ للأبد

هكذا بدأ (أنطونيوس) في حديثه معي، فشحذ سمعي وبصري إليه وتقدمتُ نحوه لأسمعه:

- لا أظنُّ الداء الذي أحملهُ سيُبقي على عمري في الحياة أكثر مما مضى، وأعلمُ يقينًا أن الموت في انتظارِ سقوطي، وأن سقوطي بات قريبًا، يا (أغريبينا).. ماذا تقولين في رجلٍ ماتت عنه امرأتهُ فدفعه سوء الحال إلى الهجرةِ من أثينا قبل خمسين عاماً برفقة أربعةٍ من أطفاله، كان لهم أبًا وأمًّا ويقتله الغمّ حيالهم ويعجزُ عن تقديم شيءٍ لهم في ظلِ الفقر والعوز والفاقة والحاجة الشديدة، كان يحلمُ بأن يحظوا جميعًا

بحياة كريمةٍ هانئةٍ في المهجر، وصل إلى روما فكان أحوَج إلى مسكنٍ له أو مالٍ يبتاع بهِ قوتًا ومؤونة، عاش بادئ الأمر يجوبُ الطرقات بحثًا عن عملٍ أو عن أحدٍ ليمنحهُ فتات خبزٍ أو بقايا طعام ليسدّ به جوع أطفاله، كان يبحثُ في الطريق العام عن مأوًى له ولأطفاله في البرد القارس، ويعودُ ليبحثُ في الغدِ عن كسوةٍ لهم أو غطاءٍ يُعينهم على جلب الدفء لهم، ساءت حالة أحد أولاده ذات مساء وكاد يموتُ الولد جوعًا فأغمي عليه لشدة التعب والضمور ولِما يعانيه الطفل المسكين من مرضٍ شديدٍ خانقٍ في رئتيه، حملهُ أبوه بين ذراعيه وجال به ساحات روما صارخًا بصوتٍ عالٍ في الأزقّة وحاملاً ابنهُ معه والدموع تتناثر كاللآلئ على وجنتيه، كان يبحثُ عن نجدةٍ أو مُغيثٍ لابنه، فلم يجد لهُ مُسعفًا ولم يستطع توفير طعامٍ أو علاجٍ له لعدم امتلاكه للمال، بلَغت صيحات الأب إلى مسامعِ رجلٍ نبيلٍ كان يمشي في الساحة ذاتها، فهبّ مندفعًا إليه، ووبّخ من كان واقفًا مُتفرّجًا من الناسِ على قسوةِ قلوبهم، ثم أمر بتوفير

الإنعاش اللازم للطفل حتى دبّت فيه الحياةُ من جديد، فعاد وأمر بأن يمُنح الرجل المُهاجر ما يكفيه من المال وأن يُعطى منزلاً على نفقتهِ وأن يتلقّى أبناؤُه التعليم في المدارس، قاوم بعض الناس تلك القرارات مع الأيام على اعتبارِ ما فيها من تقديمِ امتيازاتٍ لرجلٍ أجنبي وتفضيله على أبناء روما، فأمر هذا الرجل النبيل بمنح المُهاجر وأطفاله حق المواطنة وأن يكونوا أبناءً للإمبراطورية مثل الآخرين، بكى الرجل المُهاجر كثيرًا آنذاك، وأقسم للآلهة أن يهب روحه وأرواح أولاده فداءً في سبيل أرضهم الجديدة، وكان ذلك إخلاصًا منهُ ووفاءً لما حصل عليه في تلك الأيام العصيبة، يا (أغريبينا).. هل تعرفين من هو الرجل الفقير المُعدم الذي جاء مهاجرًا من أثينا إلى روما قبل خمسين عامًا؟ إنهُ والدي (سولون).. وهل تعرفين من هو الطفل الصغير الذي أوشك على الهلاكِ جوعًا ومرضًا؟ إنهُ أنا.. أنا (أنطونيوس) ولأجل ذلك نذرتُ حياتي كلها لخدمة الإمبراطورية ووهبتُ روحي فداءً لوطني الذي آواني فكنتُ منذ بلوغي

في خدمة الجيش، تبقّى أن تعرفي يا (أغريبينا) من هو الرجل النبيل الذي أنقذ حياتي وأحسن وفادة والدي وإخوتي، لقد كان والدكِ (ماركوس فسبانيوس)، لم أكن لأخبركِ عن هذه الحكاية إلا لأمنع سوء الظن عنكِ، فلا يختلطَ الأمر عليكِ عندما أفشي لكِ أسرارًا للإمبراطور (طايبيروس) فتطنين الخيانة من صفاتي رغم وفائي، ولكن وفائي أكبر وإخلاصي وولائي أكبر وأكبر لوالدكِ الذي لولاه لما كنتُ أنا اليوم حيًّا هنا، لم يكن ليرضيني أن أرى ابنة الرجل الذي أحيانا وهي تواجهُ الموت فتعمّدتُ ملازمتك طوال الأيام الماضية، مات والدي ومات والدك منذ عقود طويلة، ولكن الخير الكبير الذي لحق بنا بفضل والدك مزروعٌ فينا ولن ننساه، أسميتُ ابني البكر (ماركوس) تيمنًا بأبيكِ وحتى نتوارث ذكراه فتكون خالدةً فينا، طالت الحيرة بي وأنا أرى ابنة (ماركوس فيسبانيوس) تعاني الأمرّين فوجدتُ واجبًا علي أن آتي لأخبرها بالحقيقةِ كلها، لا سيما وأن موتي قد لاح لي، ولا أظن حتفي سيُخطئني هذه المرة كما كان في صغري.

يا (أغريبينا) امتنعتُ عندما كنّا في أنطاكيا عن إخبارك بمضمون خطاب الإمبراطور (طايبيروس) إلى (بيسو)، ولم يكن سكوتي إلا لهولِ ما رأيته بعيني فخشيتُ أن يصدر عنكِ ما قد يؤذيكِ بعد علمكِ بالحقيقة، كان أمر الإمبراطور يقضي بالتخلّص من (جيرمانكوس) عبر قتله دون أن يشعر أحدٌ بذلك، فحدثت مسرحية الموت التي صدّقها معظم الناس، قاموا بأخذ (جيرمانكوس) في طريق سفرهم الزائف، ثم أسقوه السمّ غشّاً فعاد جثةً هامدةً، لقد انطلت أكاذيب (بيسو) في خطاباته على الإمبراطور فظنهُ صادقًا فأمر بعجالةٍ منه بالتخلّص من (جيرمانكوس) بطريقةٍ مُثلى لا يشعرُ أحدٌ من الناس بها، وكان شديد الحرص على أن لا تعرفي بذلك، وها أنا آتي لأخبركِ بالحقيقة التي يقتلني كتمانها، وبين عهدي الذي قطعته وأقسمتُ عليه أمام الإمبراطور للحفاظ على أسرار الدولة وبين عهدي بالوفاء لوالدكِ ولنسله، اخترتُ والدك.. فإن الخير في نفسي أبقى.

خرج (أنطونيوس) من الضريح بعد أن دكّ حصوني، وتركني في ضياعٍ بين القبور، لا أعرفُ إلى أين وجهتي، لم تأتِ عيناي بجديدٍ عندما بدأتا في ذرف الدموع، فقد كانتا تدمعان قبل مجيء (أنطونيوس) وعادتا لتدمعا بعد رحيله، عاهدتُ زوجي في قبره أن أنال ممن قتلوه ظلمًا وأن يعرف الناس الحقيقة انتصارًا لصيتهِ النقي بينهم، وسأسعى للوفاء بعهدي له كما وفّى (أنطونيوس) بعهدهِ لأبي.



| ٩ |

مكثتُ في منزلي لشهرينِ بعدها، ولا شيء يصدرُ عني غير السكوت وبعضِ التحديق على الجدران، أعاودُ ترتيب أفكاري والكلمات التي سأواجه بها الإمبراطور، ولستُ أدري إن كان ما سأفعلهُ صوابًا أم خِطْئًا سيجرّ الويلات عليّ وعلى أولادي.

وما أن حسمتُ أمري واستقبلتُ أقداري، وقطعتُ عهداً لا عودةَ فيه، حتى أرسلتُ في طلبِ ولديّ (نيرو) و(دروسوس).. اصطفيتهما من بين سائر أبنائي لأن الإمبراطور قد اختصهما بالرعايةِ وقربهما إليه أثناء غيابنا حتى صارا في مقامِ أولاده، وكان ذلك لحكمةٍ وحنكةٍ رآهما فيهما.

رأيتُ أن في قربهما من البلاط الإمبراطوري سببًا مُعينًا لي في رحلة بحثي، وعلى ذلك أردتُ أن أبدأ بهما للتيقن من الحقيقةِ التي أعرفها، لعل أحدهما قد سمع ما يقود إليها أو ما يثير الريبة حولها؟

جاءني الولدان في اليوم التالي، فأحسنتُ الترحيب بهما، لا أعلمُ لِمَ ما زلتُ أراهما كالأطفال الصغار على هيئتهما القديمة مهما كانا أكبر من ذلك في عيون الناس، دخلا علي وعانقاني، فطال عناقنا، فيهما من دم وروح ونبض (جيرمانكوس).. هذا ما كنتُ أشعرُ به أثناء عناقي.

ورغم كل الأيام التي أطلتُ فيها التدرّب وترتيب الكلام والأفكار لمواجهة الناس بالحقيقة، إلا أنني تبعثرتُ أمام ابنَيّ، فكيف بيوم لقاء الإمبراطور.

لم أقوَ بادئ الأمر على الحديثِ معهما بالجرأةِ نفسها التي كانت في خيالي، كان الأمر ثقيلاً على نفسي ولساني.

استجمعتُ قواي وهما ينظران إليّ بترقبٍ وتعجّبٍ، وضعتُ كفّيّ على وجهي وشرعتُ في قول كل شيءٍ لهما، كان (نيرو) أشدَّ غضبًا من (دروسوس) وكلاهما يرفضان التصديق، هاجت بهما أجسادهما فور علمهما، فطفقا يضربان الأرض والحائط، ويقذفُ أحدهما بالكأس على مرآتي، حاولتُ تهدئتهما فلم أقدر، بحتُ لهما وأنا أبكي على حالي الذي لا يقلُّ شأنًا عنهما

سألتهما العون والكتمان حتى لا يقع عليهما الأذى، وطلبتُ عهدًا ووعدًا منهما بأن لا يبوحا لأحدٍ بما أخبرتهما به، فخرج (دروسوس) غاضبًا ولم يردّ علي بكلمة، حاولتُ احتواء الأمر فانفلت الأمر من بين يديّ كالعقدِ المنثور، ووقفتُ عاجزةً وخائفةً عليهما من ارتكابِ حماقة.

**

توسَّلْتُ إلى (نيرو) ورجوتهُ أن يعيد أخاه إلى رشدهِ وأن يمنعه عن الذهاب إلى قصر الإمبراطور، حاولنا ردع (دروسوس) ولكنهُ همّ بضربِ أخيه ليفسح له الطريق، كان يقصد في مشيته القصر.

فاضطرني لمرافقته، وكنتُ قد هيأتُ نفسي أثناء سيري في الطريق على تفجير الحقيقة أمام الإمبراطور.

كان ابني (دروسوس) يبكي صارخًا وأنا أبكي خلفه والناس ينظرون إلينا وأمارات التعجّب تطغى على وجوههم.

لم يكن القصر ببعيدٍ عن مسكني، فلم نمشِ كثيرًا ولكني شعرتُ بتعبٍ يوازي مسيري على قدميّ من مصر إلى هنا.

شعر الحرس والجنود بارتيابٍ فور رؤيتهم لمظهرنا، فشهروا سيوفهم لمنعنا، توقف ثلاثةٌ منهم أمامنا فدفع بهم ابني (دروسوس) وفسح الطريق إلى القصر فدخلنا رغمًا عنهم.

كنتُ أجري خلف (دروسوس) ويجري (نيرو) خلفي، والحرس من خلفنا يجرون، ما منعهم من الهجوم علينا إلا معرفتهم بنا رغم ما كنّا نثيرهُ من ريبة.

كنا نمشي في الممر المؤدي إلى مجلس الإمبراطور، شرعتُ في لومِ نفسي لأنني لم أحسنْ صنعًا في وزن الأمر وأخفقتُ في الكشف عنه لابنيّ، وفي قلبي أماني بأن لا يتعرض أحدٌ منهما للأذى بعد هذا التهور.

وصلنا إلى المجلس، وكان الإمبراطور (طايبيروس) جالسًا على كرسيه ويحيط به جمعٌ لفيفٌ من رجالاته، وما أن وقعت عيناه الجاحظتان علينا حتى فزع وتعجّب، هبّ الحرس من

حوله لحمايته فشهروا سيوفهم علينا وطالبونا بالتوقف مكاننا، فلم يقف ابني وظللتُ أجري معه، أحكم الحرس من تطويقنا فأجبرونا على الوقوف، كان الإمبراطور أمامنا والدهشةُ تطغى على محياه، وقف من على كرسيه وهو ينظر إلينا بتحديقٍ منه، كان ابني (دروسوس) يصرخُ على الإمبراطور مشيرًا له بسبّابته وهو يسأله قائلاً:

- هل أنت من أمر بقتل والدي؟

لم ينطق (طايبيروس) بكلمةٍ واحدة، كان متسمّرًا وينظر نحونا، عاود ابني سؤاله فلم يجب، كان ساكتًا ينظر في ذهولٍ منه، تشكَّلَت على وجههِ ملامح ابتسامةٍ طفيفة، ثم نظر إلي وقال بعد صمتٍ قصير:

- هل امتهنتِ تأليب أبنائك على الإمبراطور يا (أغريبينا)؟ تثيرين الفتنة بيننا وتحثينهم على التمرد والعصيان والانقلاب على من رعاهم وربّاهم مذ كانوا صغاراً فأحسن نشأتهم ومدهم بالمال والعتاد ومنع الحاجة عنهم حتى بلغ الفرد منهم أشدّه؟ هل تسيرين على خطا (جيرمانكوس) في النكران والجحود؟

استفزني إلى الحد الذي جعلني أنسى نفسي، فتقدّمتُ نحوه وبنبرةٍ غاضبةٍ كنتُ أقول:

- لم يكن (جيرمانكوس) بجاحدٍ ولا ناكرٍ قط، كان أوفى الناس لك ولي ولأبنائه وللإمبراطورية كلها، كيف لإمبراطورٍ مثلك يدّعي وصلاً بالحكمة والدهاء أن يستند في إصدارِ حكمٍ بالقتل على خطاباتٍ مليئة بالكذب والتدليس؟ ما الذي رأيتهُ بنفسك من (جيرمانكوس) القائد الذي حمل رايتك وراية الروم وجال بها أصقاع الأرض فاتحًا لها؟ ماذا صدر عنه غير طاعة أمرك والانقياد إليك والامتثال لك وإعلاء شأنك بين الشعوب؟ وإني لأستحلفك هنا بالآلهةِ أن تجيبني بصدقٍ منك، هل سمعتِ عن عصيانٍ واحدٍ لك أو تمردٍ عليك من (جيرمانكوس) في غير الخطابات التي كان يبعث بها (بيسو)؟ ما فائدة علمك بحقيقة زوجي وصفاء سريرته ووفائه وولائه لك حتى تجنح إلى تصديقِ خطاباتٍ زائفة كان يبعثُ بها (بيسو) إليك حسدًا وطمعًا منهُ بمكانة زوجي؟ لقد كان (بيسو) مدفوعًا في تدليسه

وتضليله لك بمشاعرَ من الغبنِ وسوء التقدير له بعد أن قُمتَ بجعله مندوبًا لدى (جيرمانكوس) في الجزء الشرقي من الإمبراطورية، أي تهورٍ منك في أن تحكم بقتل أكثر قادتك طاعةً لك غيلةً.

أرى سؤالاً في عينيك يقول لي: (وكيف عرفتِ بذلك يا أغريبينا)؟ وها أنا أجيبك قبل أن يخرج السؤال من فمك وينطق به لسانك، لا يمكن أن تقطع دابر الأخيار فلهم في الأرض مزارع بشرية، إن الآلاف المؤلفة التي أحسن زوجي إليها منذ أن تقلّد أول رتبةٍ له في الجيش لقادرةٌ على أن تذود عنه وعن ذكره وأن تذبّ عنه ظلمه حتى بعد مماته، لا يمكن للعصبة الذين بلغهم أمرك بقتل (جيرمانكوس) أن تبقى صامتةً أبد الدهر، ففيهم من كان زوجي يُحسن إليه ولا يقدر أن يكتم غيظ جنايتك، ومنهم من كان يرفضُ أمرك في باطنه وإن كان مضطرًّا إلى الامتثال له، وعليك أن تعرف أن الحقيقة التي أوشكت على الظهور من شأنها أن تهدد مقامك أمام مجلس الشيوخ وأمام الناس وأن تُدنّس

سيرتك على الألسنِ والأفواه، وعندها أخبرني كيف سيذكر التاريخ اسم (طايبيروس).. لا أنكرُ عليك ما فعلته بحق أبنائي من رعايةٍ وحمايةٍ وإعاشة لهم، ولكن إياك أن تُنكر أنك السبب وراء جعلهم أيتامًا، ولو قدّمت لهم الدنيا كلها بعد قتلك لأبيهم لما أعطيتهم ربع ما سلبتهم.

تقدّم (طايبيروس) نحوي وظننتهُ سيصفعني وأنا محاطةٌ بجنوده وبين صمتِ ولديّ، سألني قائلاً:

- عزيزتي (أغريبينا).. بإمكاننا أن نسوّي معًا جميع الخلافات بيننا، أنتِ سليلة أباطرة ولا أظنكِ ستُقدمين على أمرٍ من شأنه أن يَذهب بأمجاد أجدادك وأجدادي، في البدء أخبريني، أي الجنود قد خان الأمانة وأفشى لكِ أسرار الإمبراطورية؟ وإني لأشكر لكِ وافر فضلكِ على التماسكِ عذرًا لي ويقينكِ أنّ أحكامي لم تكن من أهواء نفسي، وإنما استندتُ فيها إلى ما كان يبعثهُ المندوب لي، فإن كنتِ تقدحين بما كان يبعثهُ (بيسو) إلى مقامي، فإني أعدكِ وأعاهد

نفسي أمام كل الشهود هنا بأن أرسل في طلبِ (بيسو) وأن أخضعهُ لمحاكمةٍ عادلة على مرأى الناس جميعًا، فإن تبيّن لنا زور ادعاءاته في حق (جيرمانكوس) وتخوينُهُ له بهتانًا، فحتمًا سنقتص منه وسنأخذ بثأر زوجكِ ممن ظلمه وغشنا.

قاطعته:

- وهل سترد المحاكمة زوجي للحياة؟

أجابني:

- (أغريبينا) (أغريبينا).. نحن لا نرد الأموات إلى الحياة ولو كنا نقدر لبعثنا من القبور أحبابنا، ولكن الأموات يشعرون بالراحة الأبدية إذا علموا أن دماءهم لم تذهب سدى، فينعمون بعدها براحةٍ وتكون لهم حياةٌ أخرى، سأبذل جهدي لتحقيق العدالة وإظهار الحقيقة ولننصفَ بها زوجكِ، ولكن بشرطٍ واحد.

لم أتفوه بكلمة وكنتُ أنظر إليه ليكمل حديثه فقال:

- تعلمون جيدًا بتربّص الخصوم بي ورغبة بعض رجالات مجلس الشيوخ بإسقاطي عبر البحث عن زلاتي وعثراتي، وإني لأعدكم بإجراء محاكمةٍ عادلةٍ شريطة أن تكتموا في أنفسكم ما تعرفونه، فإني لا أريدُ إثارةً تظهرُ على الملأ ويتداولها عامةُ الناس فتحولُ دون إجراء المحاكمة.

كنتُ أنظر إليه وأشعرُ بالقلق الذي ينتابه، يخاف الإمبراطور على صيته بين الناس، ويدركُ أن محبة (جيرمانكوس) تشيع بين شعبه، فكيف بهم إذا عرفوا أنه القاتل الحقيقي لجيرمانكوس، وكيف إذا عرف أعضاء مجلس الشيوخ أنه قد أصدر حكمًا بقتلِ قائدٍ قبل محاكمته، كنتُ أرى في عينيه إحساسَهُ بالورطة، كان يشعرُ بالتهديد مني ويريدني أن أُبْقي على الأمر سرًّا بيننا.

لم نمكثْ طويلاً لديه قبل أن نخرج بعد أن أحسنتُ من تهدئة ولديّ، كانا يبكيان بحرقةٍ على معرفة الحقيقة التي أقرها الإمبراطور، قطعنا عهدًا أمامه بالتزام الصمت إلى حين إجراء المحاكمة.

ومضت الأيام، وقد وصل (بيسو) بالفعل إلى روما، كان قد جُلب بالطريقةِ ذاتها التي اقتادوا بها زوجي يوم أخبروه كذبًا بضرورة ترحيله لأجل محاكمته فكان مثواه الأخير.

أمر الإمبراطور بالبدء والمسارعة في محاكمة (بيسو) وكان يرجو في داخلهِ ألا يكون موت (جيرمانكوس) ظلمًا حتى لا تطالهُ التهمة، كانت التهم الموجهة إلى (بيسو) كثيرةً أهمها التآمر على القائد (جيرمانكوس) وتدليس الحقيقة والتسبب في قتلهِ، طالت أيام المحاكمة ونفى (بيسو) عن نفسه تهمة الكذب على (جيرمانكوس) أو قتله وأصر إصرارًا على موته ميتة مفاجئة أثناء سفره، كنتُ أسمع بأخبار المحاكمة ومجرياتها وأنا ماكثةٌ في منزلي، يتناقل الناس أخبارها لي، ولا أرجو منها نزاهة.

أخبروني أنهم أرسلوا في طلب عشرة شهودٍ من (أنطاكيا) ليشهدوا في الدعوى المقامة، وما أن شرع ثلاثة شهودٍ منهم بالإدلاء بما يبرئ زوجي من التهم التي ألصقها (بيسو) به كالخيانة والتخطيط للانقلاب على الإمبراطور، حتى عرف الإمبراطور في نفسه أن قراره في قتل (جيرمانكوس) جاء من وحي تدليس (بيسو) ولم يكن بحقيقةٍ على الإطلاق.

أوقف الإمبراطور المحاكمة بشكلٍ مفاجئ، لقد خشي أن في استمرارها خطرًا عليه، وأنها قد تكشفُ عمّا قد يدينه، كان يظن قبل إجراء المحاكمة أن (بيسو) على حقٍّ فيما كان يخبره به في الخطابات، وفور أن ظهر له ما ينفي ذلك حتى أحسّ بالخوف، ورأى أن استمرار الضغط على (بيسو) سيدفعه لكشف الحقيقة كلها، بما في ذلك أمر القتل ظلمًا والذي صدر عن الإمبراطور نفسه، كانت كالصاعقةِ عليه يوم أدرك المستور، وصار ما يشغلهُ هو الحفاظ على اسمهِ مُنّزهًا عن فضيحةٍ محتملة، كان أمره بإيقاف المحاكمة ينصبُّ لمصلحته، أوقفها بذريعة تأجيلها والحق أنهُ أراد أن يستدرك ما يمكنه استدراكه.

وبينما أنا في حجرتي ذات مساء، دخلت عليّ خادمةٌ في القصر أعرفها، اسمها (ترتايا) كانت عجوزًا حدباء وقد أفنت عمرها في خدمة البلاط الإمبراطوري، كانت في مقام أمي وتحنّ كثيرًا علينا، جاءت لتخبرني أن (بيسو) قتل نفسه فجأة في زنزانته، وجدوه ميتًا صباح اليوم، يقولون إنه قتل نفسه بعد أن عرف أن محاكمته في طريقها لإدانته.

لم أحزن على (بيسو) أبدًا، وبدأتُ ألعن روحه كلما تذكَّرْت زوجي، وزوجي لا يغيبُ عن بالي أبدًا وكذلك لعني لـ (بيسو).

ولكن أن يقتل (بيسو) نفسه فجأةً أثناء محاكمته أمرٌ يبعثُ على الريبة ويحمل في طياته أسئلةً كثيرةً بلا إجابة.



| ١٠ |

وفي ليلٍ بهيم، وبينما أغطُّ في نومي، كنتُ أشعرُ بالخطرِ يدنو مني، خُلع باب حجرتي بشدةٍ فاستيقظتُ من الروع والهلع الذي أصابني، دخل علي جنودُ الإمبراطور، وقد بدا لي المنظرُ مألوفًا، أعادوا لي الذكرى المريرة في اقتحامهم القديم لمنزلي يوم أخذوا زوجي مني وأبرحوني ضربًا، ولكني هذه المرة أقوى والأيام تعلّمني.

لم أبدِ أي مقاومةٍ لهم، كنتُ أسألهم ماذا يريدون فقط، فطلبوا مني الصمت وبدؤوا في وضع الأغلال على يديّ وقدميّ، استسلمتُ لهم واستجبتُ لهم، فلقد زهدتُ في الدنيا كلها ولم أعدْ أبالي.

ربطوا خرقةً على عينيّ وفمي وأحكموا إيثاقها ليمنعوني عن الرؤيةِ والكلام، ثم وضعوا خيشةً على رأسي فغطّوني ولستُ أرى بعدها، اقتادوني إلى دربٍ طويلٍ وأنا حافيةُ القدمين، ظللتُ

أمشي فيه لساعاتٍ معهم والجفاف يقتلني فأُحاولُ في كل خطوةٍ أن أتعرّف على الطريق بإحساسي فلم أقدر، كان الخوف يطغى على شعوري وأكادُ أسمعُ في جوفي نبضات قلبي، أحسستُ بالهواء القوي يخترق فتحات الخيشة وكأنه الهواء الذي يصحبهُ موج البحر معه، وبدأتُ أشعرُ بعدها بالبحر وأشمُّ رائحته وأسمعُ صوت تلاطم أمواجه على الشاطئ، لا أعرفُ إلى أين يأخذونني، ولكني كنتُ أحاول صارخةً أن أسألهم عن أولادي وعن مصيري، فلم أستطع نطقًا بلساني المعقود.

أسمعهم يتحدثون بعضهم إلى بعضٍ حول تقريب الزوارق إلى الشاطئ، فعرفتُ أني في طريقي لركوب البحر التيراني، كنتُ أسمعُ صوت الزوارق تقترب منّا وصوتَ شدّها بالحبال، بدؤوا في ركوبها وكنتُ معهم أنتظر لحظة ركوبي، حملوني معهم دون أن أرى وبدأتُ أشعرُ أنني فوق الزورق لحركة المياه تحتي وصوت التجديف الذي أسمعه، لم يخبرني أحدٌ إلى أين يأخذونني؟ وما هو مصيري؟ وماذا سيحدث لأبنائي؟

**

رحلةٌ قطعتها في جو مريعٍ، لطالما كنتُ أخاف وأخشى ركوب البحر حتى في أكثر أيامي سعادة، فكيف بي وأنا أركبه والخوف يملؤني ولا أشعرُ بأناملي.

لم يتحدثْ أحدٌ إليّ ولم أشعرْ سوى بالدموع تسيلُ على وجهي وتبلل خيشتي وتكتمُ أنفاسي، يختلطُ لفحُ أملاح البحر بما يسكن على شفاهي من أملاحِ دموعي، وأُحسُّ في رأسي بالدوار والغثيان لا يفارقني.

لم يقدموا لي الطعام ولا الماء رغم عطشي وجوعي، طوال رحلة الظلام المريعة كنتُ جالسةً بخشوعٍ مني وكأنني في صلاتي، وضعوني في آخر الزورق والجنود عن يميني ويساري، والصمتُ يسودُ رحلتنا.

غالبني الدوار فأردتُ التقيؤ، وأشرتُ لهم بجسدي أن ينزعوا عن وجهي غطائي، فأعانوني بقوةٍ على ذلك، نزعوه عني وشعرتُ بالهواء يجتاحني، وأسرعتُ نحو حافة الزورق لأُخرج ما في بطني، وما زلتُ معصوبة العينين.

بدأتُ أبكي وأتألم على حالي وأرجو منهم أن يجيبوني فلم يتحدثوا إليّ، كان أحدهم ممسكًا بذراعي فأعادني إلى مكان جلوسي وأبقاني هناك مستمِرَّةً أتأمل حالي، ولا شيء يشغلني سوى أبنائي وبناتي.

**

وقتٌ طويلٌ قطعناه ولستُ أحسبهُ فقد انشغلتُ بنفسي، حتى سمعتُ ظهرًا أحد الجنود في الزورق الذي يتقدمنا يصرخ قائلاً:

- وصلنا إلى (بانداتاريا).

فبدأتُ أسأل نفسي: لمَ جلبوني إلى جزيرة (بانداتاريا)؟ لمَ أرسلوني إلى الجزيرة ذاتها التي اتخذها الأباطرة عبر الزمن منفىً للمجرمين، وأي ذنبٍ فعلته لأُحمل في البحر إليها؟

أوقفوا الزوارق عند حافة الجزيرة، شعرتُ بهم يجرّون زورقنا بالحبال ليستوي على الشاطئ، وهناك عرضوا عليّ إعانتهم لي على النهوض والمشي معهم بسلاسة، ما زالت أغلالي تعيقُ تحرّكي فيحملونني من فوق الزورق إلى أرض الجزيرة الموحشة.

بدأ بعض الجنود بركوب زوارقهم فور وصولنا وشرعوا للعودة إلى روما بعد أن ودّعوا رفاقهم، وما زلتُ لا أرى شيئًا خلف عصبتي، ويداي وقدماي موثَقة بالسلاسل والأغلال.

لم يبقَ معي في الجزيرة سوى ستة جنود، أزاحوا عن عيني الخِرقة فداهمتني الشمس بشدةٍ ولم أكن أرى شيئًا، حاولت أن أفتح عينيّ على استحياءٍ لأمهد لهما استقبال نور الشمس بعد وقتٍ طويلٍ من الظلام الحالك الذي كان يسكنها.

وقف أعلى الجنود رتبةً بينهم، وصدح فيهم قائلاً:

- بأمرِ الإمبراطور (طايبيروس) وبتأييدٍ من مجلس الشيوخ على ما رفعه الإمبراطور لهم، وبعد ما توافدت وتوافرت الدلائلُ والشهودُ على ما كانت تحيكهُ (أغريبينا) وكلٌّ من أبنائها (دروسوس) و(نيرو) من تأليبٍ للناس وإثارةٍ للفتنة ومحاولاتٍ للإطاحة برجالات الدولة والتخطيط لما يشقّ الصفوف ويهدم استقرار الإمبراطورية ويخلّ بأمنها، فقد صدرت بحقهم عقوباتٌ ما بين نفيٍ وإيداعٍ في السجن.

قتلني ما بلغ مسامعي، وعرفتُ أن الأذى قد لحق بابنيّ، جثوتُ على الأرض أبكي أمامهم وأسألهم ألا يؤذوا أحدًا منهما.

سحبني اثنان من الجنود وجراني ولم أستطع المشي فقد أرهقتني أغلالي، بدأت قدماي بالنزيف ورمل الشاطئ المبلل يلتصق بهما وأنا أُسْحل بين الجنديين حتى رمياني في منتصف الجزيرة

عدتُ أرجوهم وأطلب منهم ألا يطال الأذى ولديّ، أدركتُ في جوفي أن الإمبراطور (طايبيروس) قد فعل كل هذا ليحمي نفسه، ويغسل عاره من فضيحةٍ قد شارفت على الظهور، فضيحة قتله ظلمًا لـ (جيرمانكوس)

أراد أن يقضي على كافة أطراف القضية بعجالةٍ منه حتى لا تنكشف خباياها، وعرفتُ حينها أن (بيسو) لم يقتل نفسه وإنما قُتل عمدًا، وأنني بريئةٌ مما حاكه الإمبراطور ضدي من الإفك والبهتان، واستطاع بنفوذه أن يعتمد قراره الظالم الجائر من مجلس

الشيوخ، أراد أن يُبادر بالتخلص ممن يعرفون الحقيقة قبل أن تتسرب الحقيقة إلى الناس.

**

هل بلغك اليأس وتملكك القهر والغبن والذل إلى الحد الذي كنت تظن فيه أنك لن تصمد؟ هل باغتك الجوع والعطش والوحدة والخوف إلى الحد الذي آمنتَ فيه بدنو أجلك؟

هذا ما أشعرُ به الآن، أقضي يومي الخامس في منفاي، والأغلال تلتف حول جسدي في هذا المكان الموحش وحدي، رحل نصف الجنود ولم يبقَ برفقتي سوى ثلاثَةٍ منهم كالوحوش، كانوا يسخرون مني ويُكثرون من الإهانات عليّ، ورغم ما أبديته من جوعٍ وعطشٍ لم يكونوا ليطعموني، كنتُ أمتصُ الماء من الرمل المبلل فيبتلُّ ريقي.

يسكنني الخوف والذعر في هذه الجزيرة ليلاً، تقتلني الوحشة والأفكار أثقل مني ولا طاقة لي بحملها، كانوا يأكلون أمامي

ويشوون السمك ولم يقدموا لي الأكل أبدًا، تردّت صحتي وساء حالي وضعُف بدني حتى تجلّت عظامي وبدأ وجهي الهزيل بالضمور.

بكيتُ حتى نضبت دموعي واحمرّت عيناي، أشعرُ بالتيه فلا أعرف عن مصيري ولا مصير أولادي ولا أعرف ماذا ينتظرني، رموني في جزيرةٍ تخلو من الناس، وليس حولي ليحرسني سوى جنودٍ لم أرَ أقسى من قلوبهم في حياتي.

وضعوني بعد ارتفاع بكائي فيما يشبه الحجرة الصغيرة وسط الجزيرة، كانت مبنيةً من الأخشاب، وأظنها سجنًا للمنفيين ولا أعرفُ الفرق بينها وبين الجزيرة التي كانت سجنًا برمّتها، لم يزيحوا عني أغلالي حتى عند ذهابي لقضاء حاجتي، لم يكن النوم يزورني أبدًا في هذه الحجرة، بلغ بي العطش إلى حالٍ مؤلمٍ عندما شرعتُ في شربِ دموعي، كل الأشياء تكالبت حولي حتى بدأ الوهم يغزوني، وأرى الدنيا من حولي كالسراب، لم يسبق لي أن تعرضتُ لجوعٍ وعطشٍ إلى هذا الحد، كان جسدي باليًا هزيلاً ونحيلاً ووجهي أزرقَ شاحبًا كما رأيتهُ في انعكاسِ أغلالي.

بدأتُ أصرخُ وأئن من الجوع والألم في أسبوعي الثاني طالبة من الجنود نجدتي، ولم يأتِني أيٌّ منهم، تركوني وسط هذه الحجرة موثَقة اليدين والرجلين ولا أقوى على التحرك أو الخروج منها لضعف جسدي، أشعرُ بالغمّ فوق صدري كالجبال، وما زلتُ أجهل مصيري وقلبي معلقٌ بأولادي في روما، أخشى أن يكون أحدهم في حاجةٍ لي.

أخذت نوبات التعب تجتاحني، فيغمى عليّ وأفيقُ وأنا على حالي، أمست ثيابي رثةً متسخةً فالمرض أعياني ولم أعد أقدر على الذهاب إلى الخلاء لقضاء حاجتي فصرتُ أقضيها في ثيابي.

أدخلُ من جديدٍ في غفوةٍ طويلة وأفيق منها وأجد التعب قد أحكم من القضاء على جسدي، لم أبرح مكاني منذ أيام، ما زلتُ كما تركوني في جلسة القرفصاء.

الجوع قاتل، العطش قاتل، الغمّ قاتل، الظلم قاتل، الوحدة قاتلة، فراق الأبناء قاتل، كل الأشياء القاتلة تكالبت عليّ مرةً واحدة، وأظنها ستقتلني.

لم أعد أشعرُ بجسدي في اليوم التالي، ولم أستطع أن أفتح عينيّ، تفاقمت حالتي حتى صرتُ كالجثةِ بوجهٍ مشدوهٍ وفمٍ مفتوحٍ يكسوه الجفاف، لا أسمع همسًا في الجزيرة كلها، وبينما أوشكت أن أغمض عينيّ حتى فُتح الباب أخيرًا، جاهدتُ عيني لأرى من الذي دخل عليّ، فإذا برجلٍ يقول لي بصوتٍ فزّ له قلبي:

- يا كبيرةَ الورد

لقد كان (جيرمانكوس).. دخل علي بابتسامتهِ التي أعرفها وبلباس الحرب، ويرتدي فوقه الوشاح الأزرق الذي أهديته إياه في أول لقاءٍ لنا، فتحتُ إحدى عينيَّ لأحاول رؤيته من بين الدموع فلم أستطع ذلك، كان جسدي مشلولاً بالكامل ولا أقدر حتى على تحريك لساني لأنطق اسمه رغم محاولتي.

تقدم (جيرمانكوس) نحوي، ثم دنا إليّ وبدأتُ أشعر به وهو ينزع قيودي عني، ثم خلع وشاحه الأزرق ولفني به وحملني بين ذراعيه، كنتُ متعبةً إلى الحد الذي أنهكني ومنعني عن الحركة أو الكلام، شعرتُ أخيرًا بالحب من جديد، خرج (جيرمانكوس) وأنا بين ذراعيه من الحجرة، ولم تكن الجزيرة

كما كانت عند حملي إليها، لقد تغيّرت بالكامل، كان النور يسكن أرجاء المكان، وصارت الجزيرة كالبستان الفسيح المليء بالورود والأزهار الذي رأيته في حلمي القديم، حلمي الذي لم يلتفت لي فيه (جيرمانكوس) ولكنه الآن على النقيضِ تمامًا، جاء إليّ وتبسّم لي وحررني من قيودي وأغلالي، وحملني معه إلى حياةٍ أفضل، فرحلتُ معه.. وتركتُ لكم الدنيا.



سلطان موسى الموسى



@almousa_su

قصة قصيرة

